

مجهول فوق السطح

ملاحظات كتبت من على
أحد أسطح أبنية بيروت

مرهف السليم

مجهول فوق السَـــــطح

ملاحظات كتبت من على

أحد أسطح أبنية بيروت

مجهول فوق السطح

مرهف السليم

ملاحظات أخطبوط :

بدأت كتابة هذه الأطروحة أو إن صح تسميتها سلوك بشري غريب، عندما عاودت النظر في المرآة مراراً وتكراراً، واكتشفت ذلك الشريان الذي ينبض بشدة في الجهة اليمنى من رقبتي، حتى خيل إلي مرة أنه كاد ينفلت من مكانه.

لماذا ينبض بهذا العنف؟ ولماذا لم ألاحظه قبلاً؟

كنت أنظر إليه بغرابة .. ببلاهة !

في إحدى المرات وبعد البحث في المراجع الطبية الالكترونية، توجساً مني، إن كانت هي مشكلة في

الضغط ؟ أم في القلب ؟ أم في المحفظة ؟

قرأت على إحدى المواقع الطبية المقيتة : أن شدة نبض الشريان السباتي، هو نتيجة لتسرع ضربات القلب الأذيني الإنتيابي ـ حتى الآن لا يوجد ما يثير السخرية، جميع البشر يعانون من أمراض طفيفة أو عوارض عابرة، و يكاد لا أحد يخلو من ذلك . المشكلة

حين تابعت القراءة، وقرأت الجملة التي مهدت لي الدرب لكتابة هذا الملاحظات .

كانت الجملة: وجد هناك ارتباط بين تسرع القلب الأذيني الإنتيابي والأشخاص الذين يشعرون بالعلو أو اعتادوا النجاح.

مهلاً !! أشعر بعلو مريع، لكن عن أي نجاح يتحدثون ؟

حتى النجاحات الساذجة بالنسبة لي، أشعر أنها فشل يتعاظم مع تقدم عقارب الساعة. ربما كانت الجملة بمنحى أدق : والأشخاص التواقون للحياة .

أما العلو !! آه ربما لأني أعيش على سطح إحدى الأبنية .. إن الطب قد تقدم لدرجة أنه قد يحدد في أي طابق تعيش !!

كل مرة أنظر فيها لتلك المرآة اللعينة، كنت أكتشف شيئاً . ههه لا لا، ليس بالضرورة أن يكون شرياناً سباتياً، أو عرقاً وداجياً، ولا أي من تلك المصطلحات الطبية التي تجلب القيء، أو تجعلكم تشتمون رائحة المستشفيات، أو تسمعون أصوات سيارات الإسعاف كسرب من الدبابير المهتاجة. اسمعوا هذه مثلاً (فتقاً شرسوفياً) ألا تشعرون بالهلع وأنتم على مقاعدكم؟.

المهم - كل ما قصدته أني أكتشفت شكلاً جديداً في المرآة، في الشخص القابع هناك .

هل جربتم الكتابة بصفة المتكلم ؟؟ صدقوني إنه لشعورٌ منعش يمزج بين الحياة الخاصة والخيال. رغم أني أحترم حياتي الخاصة وأعدها دائماً أن تبقى طي الكتمان، وأن تبقى خاصة، مستقلة، إلا أنها ليست شيئاً مهماً ؛هي ليست سوى تكرار، تكرار، تك، تك، تك ....

أما الآن فصاعداً، سأسترسل بكتابة ما حدث أمام المرآة مرة أخرى. نظرت إليها بتركيز شديد، إلى نقطة ثابتة في المنتصف فرأيت أخطبوطاً، ثم رجل كهف، وتحولات وحشية. كنت وجه أخطبوط بجسد إنسان، جاحظ العينين، مستدير الرأس، ينظر بتلوي إلي عينيه وقلوبه. قلوبه جميعها قوية، لكنها تسبح بالعفن. فقط أطرافه متينة ورشيقة تضج بالحياة. أطراف لجسد إنسان أخطبوطي تربطه بالحياة إلى نحو ما .

الطرف الأول: المتعة الخالصة

إنها طفولتي، أجمل الأيام التي يمكن لطفل أن يختبرها . كنت دمثاً وجريئاً؛ نعم كنت جريئاً، وأتذكر جيداً كيف ابتعدت عن المنزل على دراجتي لمسافة سبعة كيلومترات.

اعتبرته حينها شيئاً خارقاً، الوصول إلى أبعد نقطة عن منزلي، وبسرية تامة. السرية التامة هي ما تعطي للأمور هيبتها. تلك الحياة السرية؛ هي الطفولة .

كم هو فذ ذلك الشعور بالفخر، تلك النشوة ..أفتقدها؛ تلك النشوة.

لا الغذاء المتكامل، ولا الثياب الجميلة، ولا التعليم يندرجون ضمن اهتمامات الطفل، تلك المتعة فقط.

فقط (الجرأة) والقدرة على أن تكون شقياً وفظاً بحدود قصوى، أو أن تكون متغطرساً و شرساً. هو الأكثر أهمية. كنا في سن الثامنة في العمر الذهبي، نحفر حفرة في الأرضية الترابية التي شيد عليها سور المدرسة أنا وصديقي، ثم ننسل خارجاً للعب على التلة الترابية على مبعدة من السور. ثم يأتي صديق ثالث لنبتعد أكثر، بحثاً عن أشجار الليمون. صدقوني إن تلك المغامرات لتضاهي مغامرات جوليفر .

سأدعكم تستهزؤون بـذلك، وأكمـل الحـديث عن المتعـة الخالصـة. رغم مفهومها الساذج لنا نحن البالغين (أكـل الأطعمـة المحظـورة، والمشــي على الأسـوار، واللعب بـالطين، كـل تلـك الأشـياء الـتي يخشى منها الأبوين على طفلهم الأول، وكأنه سيصبح صانع المجـد البشري) .تلك هي السعادة.

أتـذكر جيـداً أني امتلكت طابعـاً ابتزازيـاً، أوظـف بـديهتي لمـآربي الشخصـية، أقـايض على الألعـاب والأطعمـة، وأسـعى لكسـب ود صـديقتنا في الصـف، الجميلـة لين، والـتي كـانت تبقى في القاعـة الدراسية لمراقبة المقاعـد، وكـان أحـد التلاميـذ يبقى معهـا وكـانت تتكلم معه بلطافة شديدة، أما مع الآخرين ومعي، فقد كانت تتحـدث بجدية وصرامة. في أحد الأيام بعد أشهر طويلة من الانتظار طلبت مـني أن أعلمهـا تحسـين خطهـا في الكتابـة، لم أصـدق **!!** لم أعلم حينها عن أسلوب القرصـة في التأكـد، لكنت قرصـت نفسـي ثلاث مرات. عدت إلى المنزل كعودة الفاتحين، اتنفس نصراً، وأحلق في الأعالي.

الطرف الثاني : السم والترياق

أعود إلى صراع المتناقضات، صراع الأضداد، الجيد والسيء، الضار والنافع، أيهما الإيجابي وأيهما السلبي، وهنا أجدني ضائعاً بين السم والترياق .

أولى سمومي كانت العزلة. أشد أنواع السموم فتكاً وأكثرها جودةً، لكن ترياقه بطيء جداً، و لا يمكنه كبح انتشار السم وسرعته .

ما حدث، هو أني كنت أتناول الترياق مرغماً. عشت في عالم يضج بالغرباء، مليء بعابري السبيل، أسمع كلاماً يستعصي علي فهمه، وأسمع موسيقى صعبة المضغ، تفصيلات، تشوش، ترهات. بات ذهني خاملاً، و كدت أنسى حتى جدول الضرب، وأتخبط كثور ينازع، لم أعد قادراً على المتابعة. هذا الترياق يؤلمني. أعطني سماً بسرعة!! أعطني غرفة ولو رطبة!! لكن لا تؤذي سمعي، ودعني أعرف ذاتي .

إن عالم السم شيقاً، ممتعاً، رغم قسوته المفرطة، لا أحد يكاد يتحمل ساعةً واحدةً هناك. وحده هذا السم تركيبةً شيطانية.

حصلت على الغرفة الرطبة. لم أطلبها رطبة، كنت أمزح ليس إلا. أردت فقط أن لا يلوث أحدٌ كياني، لكنها أتت كذلك مصادفةً، رطبةٌ وموحشةٌ فوق العاد . شح في المياه، إنارة خافتة، ولوحةٌ مهترئة على حائط متفسخ، وحمام منفصل يبعد بضعة أمتار، يصبح في الشتاء أبعد وأبعد وأبعد .

كنت أعود من عملي في الثامنة مساءً، لا أرى سوى كومة من الثياب المتسخة، تنتظر يوم عطلتي. أنحنى إلى تلك التلة وأقول لها أن ذلك اليوم قادمٌ لا محالة، كنت أعلم في قرارة نفسي أن لا عطلة نهائياً، فآخذها وأغسلها حتى لو لم أعد طعام العشاء، كان ذلك يتكرر كلما تبدأ الثياب بالتجمع كل أسبوع.

ما نسيت إخباركم إياه، أن هذا السم كان أجاره مرتفعاً جداً، أكثر من ترياقين مجتمعين مع بعضهما، ثلثي راتبي تماماً، هل رأيتم مجنوناً مثلي؟.

نعم ياسادة. كان ذلك السم جديراً بذلك، هل تعلمون لماذا؟ لأنه نابع عن إرادة حرة، و استقلالية لا تشوبها شائبة، مع التركيز على أن (لا تشوبها شائبة)؛ يعني أني وجدت السم بنفسي، ليس مدفوعاً من أحد. سماً خالصاً، لا تشوبه شائبة.

عدت من العمل في إحدى الأيـام المـاطرة، لأجـد المـاء على كامـل الأرض، على الرفـوف، وأدوات الطبخ. كـان المـاء يتسـرب من السقف، نقطة، نقطة. جلسـت على حافـة السـرير، السـرير المثبت بمسمارين، والذي قد ينهار بأي لحظة، لكن لم أعلم أيهما سـيحدث قبلاً، يـوم العطلـة، أم انهيـار السـرير. جلسـت أحـدق في الحائـط، متعبـاً، منهكـاً، والميـاه تسـتمر بالانهمـار، فقـررت أن أشـعل سيجارة. كانت تلك السـيجارة الألـذ على الإطلاق، و كـانت نكهتهـا مفعمة باللامبالاة، كم هو نـادرٌ أن أشعر باللامبالاة - بالخدر التـام - صمتٌ تام باستثنـاء صوت قطرات المياه، وصمت الثلاجـة الـتي لا تصدر أصواتاً على غير عادة **!!** آه آه ربمـا تعطلت. يسـرني دائمـاً فكرة أن لا تلفاز يزعجني، لم يكن لدي هذا الشيء، مجرد وجـوده يثير في نفسي الاشمئزاز والغثيان .

بدأ السم يصبح أقسى وأقسى حين اكتشفت مؤخراً، أن هناك جـرذاً يمر بجانب الحمام. المفـزع حينهـا أنـه ربمـا فكـر بالاسـتقرار، أو ربما بالارتباط، حيث أن تنقلاته المسائية كـانت تـوحي أنـه يواعـد عشيقة ما خلف إحدى الخزانات.

أكره الجرذان بشكل يفوق الوصف، أكرهها ربما أكثر من التلفاز، بل إني متأكد أني أكرهها أكثر بكثير .

"وجد هناك علاقة بين تسرع ضربات القلب الأذيني الانتيابي والأشخاص الذين يشعرون بالعلو".

العلو والبرد والزائر الجديد. كم هو بارع كاتب تلك المقالة الطبية .

نتوقف عن الضحك والسخرية مبدئياً يارفاق، لأننا سنتحدث عن السم الثاني، سم حياتي .

- سم الكتب وترياق الغباء :

هذا سم من نوع فاخر، شديد التأثير، بطئ الانتشار، ولعل هذا ما يجعله أكثر خطورةً وضراوة. يجعل البدن يأن بكل المواقع المؤذية، في كل صفحة تشعر أنك أكثر مرضاً، وأبعد عن الطبيعة، وبما أنه لا يمكن للمعرفة أن تكون مرضاً، لكنها تصبح كذلك؛ حين تكون تلك المعرفة مستهدفةً ضدك شخصياً، تلامسك بأدق التفاصيل بكل صفحة ترسلها بيديك إلى الخلف بتثاقل، وكأنها مؤامرة أحيكت ضدك دون سواك.

كم كان ذلك السم لذيذاً، خصوصاً في تلك الغرفة، كلما تجرعته كلما طلبت المزيد، تفقد السيطرة بين طياته، و بعض طهاة السم الذين يسكبونه في تلك الكتب، يكونون أشد حقداً، و سمهم ذو نكهة سلسة، لكنه يتجه إلى القلب مباشرةً، دون التواءات، حتى يصبح السم فتاكاً، ويصبح محتسيه على عتبة جنون أو شلل.

إن الترياق يذهب خطر السم لفترة، لكنه يجعل العودة إليه أكثر متعة وطعمه أكثر مضاضة.

أحتسي الترياق فأحاول أن أثرثر أو أن أصبح أكثر اختلاطاً، أتلمس صدق تلك الكتب، بتجرع التفاهة البشرية، تتقبض عضلات وجهي من مرارة الطعم، كطفل مرغم على تناول حساء يكرهه، ويتقيأ منه في كل مرة، ثم تجحظ عيناي، ويزداد اصطكاك أسناني، وتتردد حنجرتي في بلعه، نعم **!**لقد ابتلعته أخيراً .

أفعل هذا مرغماً، وإلا فلن أستطيع التلذذ بالسم ثانيةً، سيصبح شيئاً بحكم العادة، و غذاءً غريزياً مكرراً.

سمٌ لذيذ، ثم سم لذيذ .. لذلك خشيت أن أفقد متعته.

كان للترياق أيضاً أنواعاً عديدة، منها شديد التأثير ومنها الخفيف، إليكم مثلاً هذا الترياق: أحاديث تافهة لعاشق. لا تحكموا علي سوءاً، فأنا شخص محب ولا يمكن أن أكون بغيضاً، ولكنني وبحق لا أستطيع إنفاق ستة ساعات أجري مكالمة هاتفية، لأتحدث ما قلته في البارحة وقبل البارحة !! لا أظن ذلك حباً؛ إنما هو مكالمة هاتفية.

نعم نعم !!أنت هناك أيها الماكر!! شكراً على الملاحظة:

الحب هو تلك الكلمة التي يختبئ ورائها، آلاف من المجلدات والحيوات والقيم السامية، إنها الحياة باختصار شديد، هي الخلاصة البشرية، وأقصى درجات النبل - هل قلت أنا غير ذلك!

أما الترياق الذي لا يطاق فهو – الأغاني الحديثة:

كلمات تعد على الأصابع، يعاد خلطها في كل مرة بطريقة عشوائية، كسحوبات ألعاب الحظ، لينتج عنها أغنية جديدة تأسر قلوب العذارى، وفي كل مرة يعاد خلطها تقل نسبة العذارى على كل حال .

ولكي أكـون سـباقاً عليـك أيهـا المتهكم. أنــا شــخص متحـرر جـداً وعصري رغم كرهي للتلفـاز، ومسـألة العذريـة مسـألة شخصـية. فأنا لم أقصد هنا العذرية الجسدية، إنما الفكرية، تلك الأغاني تعمـل كالتالي: هي تدخل إلى هيكل الـرأس، تفتـك بعذريتـه، وتسـيّر آلاف السـخافات المذيلـة، والـتي تحـاول البحث عن بويضـة المعرفـة الوحيـدة المتبقيـة، كي تلقحهـا..تمت العمليـة بنجـاح. لم يبـق أي بصيص أمل .

أحب ترياقاً آخر - جلسات التسامر -

إنه ترياق عذب، مضيعة للوقت بمحض الإرادة، جريمة عن سـابق إصـرار، تصـبح الهتافـات والضـحكات أكـثر عفويـة، خاليـة من التصنع، لكنها تنتهي بغرابة دائماً، بتكرار قاتل .

- سم الخمر والقهوة، ترياق الماء :

سـم شـديد البهجـة، شـديد الواقعيـة، حقيقي، بـألوان براقـة، معتـق، موجــه، موجــه للهـروب، الهـروب من الـذهب الأسـود والنقـود والحواسب اللوحية وصـخب السـيارات، إنـه الـذهب الأحمـر، ليس عليك ان تفكر،فهو سيأخذك مجرد الإرادة، مكبل اليدين.

الخمر والقهوة يزيدان من ألم مرضى المعدة، وممارسي القلق، ولهذا هم يناسبوا هؤلاء الأشخاص ـ أكثر من غيرهم.

في إحدى العبارات لنيتشه، يبتدع عبارة مؤطرة بالذهب، يقول: (القهوة تسبب لي الكدر). تلك الكلمة أبحث عنها (الكدر)، ما إن تطأ القهوة جوف معدتي، حتى تعمل فيها حقداً، وبرأسي كدراً، فمعدتي الحساسة تحب العزلة أيضاً، فلها سمومها الخاصة أيضاً، وتكره أن يفرض عليها فرضاً. كان لا بد من الماء- مشروب نيتشه المفضل- من باب المجاملة وسد الرمق، وإرضاءً لمعدتي، بوصفه شيئاً لاغنى عنه. إن علاقتي بالماء هي علاقة فاشلة.

- سم الأحلام و ترياق الواقع :

هذا السم يحرق قعر جمجمتي، مفعول الأسيد، حياة الفنان والرغبة الجامحة للإمساك بكل شيء .

كانت رغبةً جامحة في أن أكون شاعراً أو رساماً أو موسيقياً حقيقياً، أذرع لأخطبوط آخر يعيش في الأخطبوط الأصل، أما ما جلب لي - الكدر-أني كنت ربع شاعر، وربع رسام، وربع

موسيقي، وأخشى ما أخشاه أني أسير باتجاه ربع إنسان - جامع أرباع ليس إلا. عديم التأثير، ليس له أهمية تذكر، كأنصاف النواقل.

(كن قوي الناقلية كالنحاس، أو عديم الناقلية كالخشب، ولا تكن كأنصاف النواقل) – أي جامع أرباع.

- سم الموسيقى، ترياق الكلام :

اسمحوا لي قليلاً هنا أن أكون رومانطيقياً، وأرهفوا سمعكم لموسيقى سطوري. فهذا السم يلين المشاعر، كما تلين الماء الأمعاء !! نعم. نعم. أنا رومانطيقي، ماء، أمعاء، فهذا لايهم.

سم الموسيقى هذا، سم مزاجيَ، هرموني، استثنائي، سم للذاكرة. لم أسمع يوماً موسيقى لم تنعش دفائن ذاكرتي المتخمة بأماكن كثيرة،أو بآلاف الوجوه، وآلاف الصور التي حطت رحالها في رأسي، ثم تلاشت .

ترياق الكلام كان ضرورةً لا مهرب منها. أرغم نفسي في ســاعات العمل، كي أتكلم لثماني ساعات، أجيب على نفس الأسئلة كل يــوم، وأرسم ابتسامة رمادية أسترضــي بهــا الزبــائن، أتكلم لكي أحصــل على رزقي .

الطرف الثالث: حقائق صادقة

الحقيقة الأولى : هو ذلك الشخص الـذي أكن لــه محبـة عميقـة جـداً وصادقة، لم أرد تسميته سماً لأني لم أره ردحـاً طـويلاً من الـزمن، رغم أن ذلك الذراع كان صديقي لعقود، شعلةٌ وضــاءة في لحظــات الحلكــة القاتمــة، ولأني في مطلــع حـديثي تطلعت لأن تكـون هـذه الحقيقة صادقة، لا تقبل المواربة، بعيداً عن كـل تهويـل، كـان هـذا الذراع - الصديق - عظيم الشأن أبداً، فلك فقط أن تراقب نظراتــه، أما ما كنت أراه وحدي هو تلك السحابة الـتي تعتلي رأســه، سـحابةً من القواســم المشــتركة، وأفكــاراً تتشــابك فيمــا أفكــر فيــه. لم تكن رابطةً أخويةً فحسـب، كـانت رابطــة تفـاهم عميـاء، رابطــة عمـق، متجـذرةً بجســارة. كـان يملــك جناحــان كجنــاحي إيكــاروس، بغيــة

الشـمس يصـوب نظـره و يحلم باسـتخدامهما. كـان يـذرع أرض الغرفة بقدمين واهنتين، بثقة و غموض .

ماعنيته ذلك الذكاء، تلك الفطرة، بالأحرى ذلك الضجيج الوجودي، ضجيج يوقـظ الـذاكرة، ومقـدرة شـديدة على التخيـل، ولـذلك قياسـاً لعبـارة دوستويفسـكي - فـإن شـدة التخيـل و الـذكاء أيضـاً مـرض، فالذكاء يجلب الأرق، ودقة الرؤية مخيفة، والتفوق هذا خطـر. كـان وجوده يكفيني لأن أتعلم قراءة نفسي، بنفسي .

أثر الصمت :

جلست قبالة طاولتي، وانتـثرت أمـامي علبـة سـجائري، والمنفضـة المعدنية، ودفتري ذو الصفحات السمراء، وقلمي المهجـور. لم أنـو الكتابـة بتلـك اللحظـة. كنت فقـط أفسـر الصـمت. هـل للصـمت صوت ؟ كينونـة أو رائحـة ؟ اسـتمرت تفسـيراتي وتسـاؤلاتي تلـك قرابة النصف ساعة. كم تثيرني تلك الأشياء التي لا تُرى، الصـمت والـزمن والفكـر. كيـف سـيكون شـكلهم يـا تـرى لـو كـانوا أشـكالاً مادية؟ واثق أنهم سيكونون أقـل جمـالاً. فهم أجمـل لأنهم عصـيون

على الرؤيـة. في دوامـة تلـك الأفكـار سـمعت فجـأة صـوت الميـاه تجـري في الأنـابيب من ناحيـة الحائـط، فعـدت إلى أشـيائي الأقـل تعقيداً .

لماذا شدة الإدراك مرض :

هـذه العبـارة الأجمـل، لا أكـف عن تكرارهـا، ألـف، ألفـان، ثلاثـة، منحوتـة أسـطورية، صـقلت بعنايـة ألـف عصـر، لا يمكن ايجادهـا بلحظة، هي تراكمية لأبعد الحدود، معتقة كخمر أزلي، هي مـرضٌ خـاص جـداً، فلا أقـول كوبـاء يصـيب أي حشـد، فهي رمزيـةٌ جـداً ويستعصي حتى على فرويد ويونـغ تفسيرها، أو معرفة لمـا وجـدت بالأساس .

تخيل هـذه الرحلـة الإدراكيـة : تخيـل أنـك لن ترضـي ذاتـك مهمـا امتلكت من وسـائل الرخـاء والحيـاة السـعيدة . تخيـل أن حبـاً قـد دغدغك ثم أدركت قبل ان تستسلم أنـك سـتفقد الحب بالتقـادم، أو أن الذكريات الراسخة والتي تعـد من أعظم ممتلكاتـك، هي لن تتجـاوز سـخافة دعابـة يسـمعها سـكير في حانـة . كم سـيكون هـذا الوبـال الإدراكي منحطاً ووضيعاً و سـوف يجعـل كـل شـيء بلا معـنى أو هدف .

هل هناك لحظات ذات معنى ؟

طالما كنت أفكر بلحظات الانحطاط ومواصفاته، كيف يكون وكيف يتجسد بأبهى حلة، انحطاط بأبهى حلة !!!

رأيت خلال عمري الضئيل، العديد من شخصيات (الأبهى حلة). وهنا فلتأخذ معناها الحرفي تماماً، ثياب بغاية الأناقة، روائح زكية، ومقتنيات ثمينة جداً. كان الانحطاط جلياً بين سطور جباههم، انحطاط فكري راسخ جداً، أقرأه جيداً.

حين أراقب فتيات شقراوات وسمراوات بمنتهى الجمال، شعورهن مغزولة كذهب خام، تفوح منه رائحة النظافة، ووجوههن بغاية النقاء، كبلورات ثلج طازجة، وشفاهنن وردية، كزهر المنثور، برفقة شبان ببزات باهظة، وساعات يد لامعة، وشعر مخصل بعناية، يتخلله الشيب الوقور. ما كان يعنيني ذلك. كنت فقط ابحث عن سمات شخصية (انحطاط – عظمة). أنظر إلى الجبين مباشرة، أبحث فقط عن معنى الانحطاط، أراه كمنزل في أعلى جبل. ثم أعود إلى المرآة ذاتها، أبحث في جبهة من في المرآة، لأرى الانحطاط أكثر رسوخاً.

الطرف الرابع : البرد

تقويمٌ خاص هو ذاك، ذاك البرد، اثني عشر كانوناً متواصلاً، لا تبدده مدفأة، أو ملابس سميكة، يغدو وجودهما وعدمه مماثلاً. هذا البرد، بردٌ داخلي، في طرف كل نهاية عصبية، في اللب الأعمق للأحشاء.

لقد انقطعت عن الكتابة فترةً طويلة، كنت أحمل قلمي متردداً، لكنني عجزت عن استحضار أي كلمة، أو شعور، كي أترجمه على ورقة سمراء . أما اليوم فقلمي مطواعٌ جداً. ربما الكتابة تحتاج إلى مشهيات، وفاتح الشهية الأمثل هو:

تأمل المارة - الذي يبسط الطوق الخانق على رقبتك، ويستجديك أن تكتب عن ظلم أنت تجهله، ظلم لا معلن غير مفسر، عن بواطن دخيلتك، التي لا تنطلق إلا على شطحات أوراقٍ ممدودة، لتداعب حنايا الورق، وتمتزج برائحته العتيقة.

أبحث عن نفسي في الموسيقى، فأرى غموضا يكتنفني، ثم يعتصرني الوقت. أبحث في وجوه المارة عن كل شيء. ما كل هذا الفراغ حولي؟ وكم هو مقيت ذلك الشعور، مربك، وحذر.

هل أنا قوي بما فيه الكفاية، لأكمل رؤية ألف وجه ؟!

خرجت من عملي كالعادة، وكانت تقريباً الثامنة - كالعادة، وكان الجو جافاً - كالعادة. تدثرت بفولارٍ أسود، ومشيت ببطئ. كان سياج الطريق يبدو طويلاً جداً فتوقفت قليلاً لأدخن سيجارة، وكان الطريق فارغاً باستثناء بضعة أشخاص، رياضيين، يهرولون، ويقفزون، وكان الازدراء متبادلاً، لم أتقلم مع الرياضيين أبداً. كيف عرفوا أني بلا اهتمام رياضي حتى؟! عدت سريعاً إلى أعلى.

صعدت الدرج المقيت، لاهثاً .. ها ها.. أنا بلا اهتمام رياضي ها ها .. ها قد وصلت. وقفت على فناء السطح المجاور لغرفتي، والمطل إلى الشارع، ورحت أحدق بنجم القطب، وعلى بعد أمتار من المبنى المجاور، كان ثلاثة آسيويين يرددون كلاماً غير مفهوم، كنظرتي إلى نجم القطب. كانوا على الأغلب يتناقشون حول إعداد الطعام، الذين كانوا يعدوه على الشرفة. انطلقت رائحة التوابل والسمك اللاذعة و والواخزة. نظرت إلى النجم من جديد، بدت

هناك طائرة تمر بقربه، تومض بضوء أحمـر، وتختفي بين الأبنيـة استعداداً للهبـوط . كـل يـوم كنت أرى الطـائرة، تـذكرني بـأني بلا جناحين، أمتلك يدين قادرتين على تزوير الحقائق، لكن لا يمكنــني أن أكون نسراً جائعاً، أو حتى غراب.

....

ملاحـــــظات مجهـــــــول رقم ١ :

في الرابعة تخيلت أن أي شخص أصلع هو يحمـل حقنـاً مؤلمـة في جيب معطفه.

في الخامســة تخيلت أن كـل شــخص اســمه زيــاد هــو مصــور فوتوغرافي، وهو فقط لديه ستارة حمراء مثبتـة على الحائـط وهـو صديق لأبي بالضروة. في السادسة كنت أظن أن جهـاز اللاسـلكي في يد شرطي المرور، هو الشيء الأكثر تشويقاً لكي ألمســه، أو أن أضعه تحت وسادتي قبل النوم.

ثم تبقى هناك تصورات ما وبشكل دائم مهما تقدم الإنسان عمرياً.

لا أحد يعلم إذا ما كان هنالك مصـنعاً، أو لمـاذا سـمي الإسـم هكـذا. وهنا يقع على عاتق كل شخص أن يتخيل شيئاً لم يره قبلاً.

توفيـق يظن أن أول شــيء سـيراه هـو المصـنع (مصـنع بـأبخرة سوداء تخرج من المداخن الشاهقة). رياض يظن أنه طريق عادي لكنه جميل جداً ومكسو بأشجار الكينا أو البلوط. وائل يرى طريـق المصـنع على أنـه البوابـة إلى الحيـاة، والعديـد ممن تخيلـوا أشـياء

عديدة، معظمها كان مضحكاً بالنسبة للشخص الآخر الذي لا تطابق تخيلاته.

بعد سنتين كنت قد حللت رموز الإسم، طريق المصنع - مصنع المعاناة ـ مصنع كل ما لم تعرفه قبل هذا الطريق .

في كل بلد هناك طريق مصنع غير مرئي، لآلاف الحالمين برؤيته .. يتخيلوه شيئاً، ثم يكون مغايراً للواقع، ثم يجهدون أنفسهم ليتلاءموا معه، كي يصبح ذكرى شيء، خفي وغريب.

البداية:

بعد وصولي إلى بيروت، وإقامتي فيها لمدة لاتقل عن الشهر بدأت نقودي بالنفاد. حتى آخر خياراتي الممكنة التي كنت قد وضعتها كخطة باء وهي اقتراض القليل من المال ريثما أجد عملاً قد باءت

بالفشل، فقد كنت لا أعلم إلا القلة القليلة في البلد الجديد، والذين كانت أوضاعهم مشابهة لوضعي أو أسوأ قليلاً.

لم تكن الاتصالات والتوصيات والتوسلات تجدي نفعاً في سبيل أيجاد أي فرصة عمل، لكنها كانت مرهونة بكلمة (الصبر). الشيء الذي لم تكن معدتي تجيده أو تفهمه حينما تكون خاوية، إنما الوعود كانت كثيرة و واضحة وتحمل لهجة التأكيد، لكنها لم تكن أكثر من مماطلة وتخدير، و محاولة منهم لكي لا يخدشوا كبريائي.

كان اليوم الخامس والعشرون لي في الغرفة التي كانت في آخر الرواق المؤلف من خمسة غرف والمغطى كلياً بالغسيل المنشور على حبال إلى اليمين واليسار أو حتى بشكل يتقاطع مع المنتصف أحياناً، وحين حل الليل؛ كان البعوض الصيفي المدلل يدخل من ثقوب النافذة هارباً من نسيم الصيف البارد بعد منتصف الليل، وانسلت بعض الموسيقى الرديئة القادمة من إحدى الغرف والتي دخلت من النافذة نفسها. لم أستطع النوم حتى ساعة متأخرة وأنا أسمع طنين البعوض وأشعر برطوبة جسدي الذي يتآكل احمراراً. فكرت بشراء بعض الأقراص الطاردة للبعوض أو إصلاح النافذة، لكن ذلك كان غير ممكناً على الإطلاق، فأياماً قليلة تفصلني عن الإفلاس تماماً، ولذلك سيكون يوم الغد يوماً حاسماً بكل تأكيد.

نهضت في السابعة صباحاً، وكأن ذلك النشاط المباغت هو بمثابة إعطائي الفرصة الأخيرة لنفسي، بعدم العودة إلى الغرفة المظلمة، قبل أن أجد عملاً.

بدأت جولتي في الدورة في الشارع الطويل الممتلئ بالمتاجر والمطاعم الصغيرة، والذي مايزال بعضها مغلقاً حتى التاسعة. وقفت في بداية الشارع، قبالة إحدى المحلات، وددت الدخول لكن قدماي كانتا مترددتان جداً – ربما مخافة الصدمة – أو تفادي الشعور بالاهانة. وقفت في منتصف الرصيف المحاذي للطريق، تلسعني برودة الصباح الصيفية، والتي كانت تدفعني للدخول إلى المتجر مكرهاً.

دخلت أخيراً، كمن يبتلع شراباً كريهاً وهو يسد فتحتي أنفه. أقبل الرجل بابتسامة خفيفة مصطنعة من خلف ثلاجة العرض، والتي كانت تحتوي أصنافاً شهية من المعجنات والمخبوزات، وبإصبعي السبابة حككت رأسي من الخلف – ويحي حين يعلم أني لا أريد كرواساناً - .

- صباح الخير !! في الحقيقة شخص ما أخبرني أنك ربما بحاجة إلى موظف للعمل هنا أو ربما في فرع آخر.

قطب حاجبيه مستغرباً أو ربما مستهزئاً، فهو بلا ريب معتاد على

من هم من شاكلتي، والذين يجوبون الشوارع بحثاً عن عمل، يرددون نفس العبارات وبنفس النغمة حتى!!.

- في الحقيقة لست بحاجة لأي موظف.

وقبل أن ينهي عبارته تماماً، كان قد أشاح بنظره إلى اليمين مباشرة، متظاهراً بالعودة إلى العمل، وهي الحركة الصريحة التي ترمز إلى العبارة الشعبية الشهيرة : أرنا عرض كتفيك.

انتقلت إلى محل المشروبات المجاور له بوتيرة أسرع، وكأني استجديه ليقول "لا" على وجه السرعة، وبدون إضاعة للوقت سألته: هل أنت بحاجة إلى عامل هنا؟ ابتسم ابتسامة سريعة وحرك رأسه مرةً يميناً ومرةً يساراً، كطبيب يبلغ بايماءات وجهه وفاة المريض.

بدأت أعتاد على الرفض السريع، وعلى الطرق الظريفة التي كان يتم من خلالها. أصبحت الساعة الثانية عشر ظهراً، وكنت قد أنهيت مايقارب الخمسين متجراً. لقد تضورت جوعاً ويأساً، ثم قادتني قدماي بعد نهاية الشارع إلى ما يشبه الحي السكني والمجاور للسوق تماماً، جلست على الرصيف الواطئ، أشعلت سيجارتي التي أحاول تأجيل هلاكها منذ البارحة، والتي كانت

الأخـيرة. هـا أنــا ضــائع، جـائع، و لكن علي ألا أبـالي، طالمـا أن باستطاعتي النوم وقضـاء حـاجتي في مكـان مـا، قـد أسـتطيع تـدبر الأمر إلى حين.

وفي الحي، وقبالـة الأبنيـة المتلاصـقة الـتي بلا طوابـق أرضـية، رحت أتأمـل شـرفات الطوابـق الأولـى الـتي كـانت منخفضـة جـداً، والتي كانت تذكرني بالضاحية المجاورة لمدينتي، حيث كـانت حب مراهقتي الأول، تلك التي داعبت شعرها و أسندت ذقنهـا إلى حافـة الشرفة لساعات كل ما مررت أنا من هناك.

على بعـد خطـوات مـني بـدت للتـو عربـة خشـبية بثلاث عجلات، يدفعها رجل خمسيني، ذقنه بيضـاء قليلاً وشـارباه أطـول من ذقنـه. بـدت الخضـروات طازجـة جـداً، ربمـا لم أرى يومـاً خضـروات طازجـة إلى هـذا الحـد. البقـدونس أخضـر ومبلـل، كأنـه قـد أعـد للأفضل صورة فوتوغرافية في العالم، أما الخس فقد رتب بطريقـة منظمـة، كجنـود يجـرون عرضـاً عسـكرياً على إحـدى المارشـات، وإلى جانبهم الفجل بـاحمراره الـوردي ووريقاتـه المنتعشـة، يعانقـه النعناع المفعم بالحيوية. رغبت وبشـدة أكـثر من أي وقت مضـى، برغيـف من الخـبز الطـازج يكللـه بعض من ذلـك المـزيج الشـهي، لكـني بعـدها رحت أبعـد من ذلـك. فكـرت، وتـأملت ثم اسـتبعدت

فرصة عمل رجلين على عربة واحدة، أو حتى العثـور على عربـة مستقلة في وقت قـريب. غـادرتني العربـة، وعـدت وحيـداً في هـذه اللحظــات. فقــدت للتــو احتماليــة عملي كبــائع متجــول، وفقــدت الخضروات الشهية.

في الناحيـة المقابلـة من الشـارع نفسـه، كـان هنـاك متجـراً للتحـف والهدايا والقرطاسية، لم ألحظه عند البدايـة جيـداً. نبهتـني إلى ذلـك لوحة دعائية موضوعة على واجهة العرض الزجاجية، والتي تشير إلى لعبة الحظ (اللوتو). لم أتوقع أبـدا هـذه النهايـة، إذن، سـيكون ذلك آخـر خيـاراتي، هـل سـتكون هـذه اللعبـة هي من سينشـلني من الجحيم الذي أعيشه؟ هل سيصبح الغـد أفضـل حـالاً، حيث لن أبقى جائعاً؟. بعدها سأدخن بدون مفاضلات وإحصائيات لأعداد السجائر خلال ساعات النهار، وسأصلح النافذة أو بالأحرى سأستأجر غرفـة مستقلة لا يدخلها البعوض، ثم سأشـتري زجاجـة من النبيـذ دون ان أسأل عن ثمنها قط، وسـأجلس يوميـاً في مقهى الزاويـة وسأصــادق النادلـة وسنصـبح عشـاقاً، وسـأعانقها في الشـارع بعـد انتهائهـا من عملها برائحة عطرة على الاقل، و قد أستطيع تغيير شـيء مـا من كابوسي اليومي.

خمس وأربعون دقيقة كاملة وانا أصارع قدمي. وقفت أكثر من خمسة عشر مرة وفي كل مرة أعود للجلوس مجدداً، أتأمل المتجر ولوحته الإعلانية، أجر نفسي بضعة أمتار في طريقي للدخول، ثم تدفعني معدتي للوقوف، وفكرة ما تجذبني من قميصي وتسحبني للجلوس مجدداً. فكرت بالنقود التي لاتكفي لأخذ سيارة أجرة اذا تهت، هذا أذا تهت حقاً، لكن على الأقل أستطيع إجراء مكالمة هاتفية كما يفعل التائهون عادةً.

رحت أداعب بعض الحصى الصغيرة بحذائي، فرقعت أصابعي قليلاً، وفركت عيناي الخائبتان، وقفت ثم عدت للجلوس، ثم شبكت يداي مع شعري مرهقاً، هل ستكون مغامرتي مجدية؟! أم أن علي الأنطلاق من دون أدنى تفكير؟ لا بد أن علي الاستسلام لقدمي وشعوري العفوي.

لكن !! هل أنا مؤهل لذلك ؟ هل أنا مؤهل لفعلها أخيراً؟

أعلم أن حظي لم يسعفني في الماضي إلا فيما ندر، وعليَّ أن آمره الآن، أمرا لا يحتمل النقاش هنا، هنا في حالتي الأكثر سوءاً على الإطلاق، علينا أن نتكاتف معا في هذا الوقت العصيب.

حظي !! هيه !! ساعدني أتوسل اليك، ساعدني ثم عد للنوم مجدداً.

آخر صحوات حظي التعس كانت منذ الثانوية العامة، أي مايقارب العشرة أعوام تقريباً. في صباح إحدى أيام الامتحانات النهائية، وقفت مع جهاد صديقنا في المدرسة الثانوية لسنوات مضت والملقب ب (الديزل)؛ حيث أن سترته الشتوية كانت تفوح منها رائحة نفطية مثيرة للغثيان في كل الأوقات، كان جميع من في الصف يعوفونها.

أعطاني ورقة تحتوي سؤالاً متوقعاً، وعلى هذا النوع من الأسئلة تتركز أكثر من ثلث الدرجة الكاملة. لم آخذ الموضوع بجدية مفرطة، لكني قرأته بتمعن، وذلك على سبيل مراجعة المعلومات لا أكثر ولا أقل، ثم مضينا.

قدموا لي الورقة، تفحصتها بعينيَ لثوان قليلة، ثم كدت أصرخ. ماذا !! بحق الرب !! أين أنت أيها السيد ديزل، لأعانقك بشدة، ولاستنشق رائحة سترتك تلك بكل رضا، أي عراف لعين أعطاك تلك المخطوطة، نصف العلامة في الجيب !! نصف العلامة في الجيب!!. كدت سأدعو السيدة مراقبة الامتحان للرقص، لكنهم سيختمون ورقتي بالشمع الأحمر إذا فعلت. أنا سعيد ...سعيد جداً.

غمرتني حماسة شديدة بعد أن تذكرت تلك الواقعة، وبدوت أكثر

شجاعة لدخول المتجر، تغلبت على نفسي، لملمت ساقاي، اتخذت قراري وعبرت الشارع، ثم دخلت إليه، أخرجت كل ما بحوزتي من نقود، من محفظتي البالية، حتى آخر مليم، وقررت المقامرة على مصيري. اشتريت بها جميعاً أوراق (اللوتو). اشتريتها حقاً ولم يعد هناك أي مجال للتراجع، ومنذ هذه اللحظة سأطوف الشوارع ليل نهار وفي كل مكان في كل أرجاء المدينة، كبائع لوتو متجول، يعول على حظه لشراء وجبة شهية.

العمل :

في ذلك اليوم ذاته، لم أبع سوى بطاقة واحدة، وواحدة بطريقة غير مباشرة تماماً، حينما وقفت بانتظار الحافلة الكبيرة؛ اقتربت مني امرأة مسنة، تبحث عن بطاقتين بأرقام معينة، لكنها لم تأخذ سوى واحدة، أي شيطان قد غير رأيها.

في اليوم الثاني كان الوضع ممتازاً، ستة بطاقات منذ النصف ساعة الأولى، وقد عقدت العزم على بيعها جميعاً. في ساعات مابعد

الظهيرة الثلاث، وعند انتصاف الشمس على رأسي المتعرق، وقميصي الرطب الدبق، لم أبع أي من البطاقات، يكفي أن تعرض بطاقاتك حتى تقرأ الغضب في الوجوه، وعدم القدرة على الكلام.
على أية حال كان كل شيء على مايرام وبدأت أشعر بمتعة التجول، وبدوت أكثر تفاؤلاً بمستقبلي المهني، كل الشوارع ملكاً لي، ليس لي رب عمل، فأنا الآمر والناهي والمسؤول الأول والأخير عن إدراة عملي وبطاقاتي ومواعيد قدومي ومغادرتي، أو مواعيد سيجارتي المقدسة. تباحثت مع نفسي أسباب تراجع العمل في تلك الساعة الأخيرة، لا بد أن الحر الشديد وأوقات البيع تلعب دوراً هاماً، لكن على أن أقوم ببعض التحسينات حالما أمتلك النقود.
علي أن أبدو بمظهر البائع الجوال أكثر وأكثر، ربما أشتري حقيبة جلدية بحجم الكف أتأبطها، وقبعة دائرية كقبعات صيادي الأسماك.
قد أجد طريقا لتحسين نغمة صوتي وتطويرها لتتماشى مع عواطف الزبائن وموسيقى أذانهم. قد تكون تلك الأشياء بالإضافة إلى أشياء أخرى مجتمعة متكاتفة سعياً لإنجاح هذا المشروع.
بدأت أبدل عباراتي المستخدمة وتعابير وجهي، في كل مرة رحت أجرب شيئاً مختلفاً من قبيل :
-هل ترغب بتجربة إحدى الشبكات، قد تكون محظوظاً.

-لاتفوت الفرصة، الجائزة الكبرى وصلت إلى رقم هو الأعلى هـذا العام.

- جرب آخر بطاقة لوتو متبقية لدي.

خدع معروفة، لكنها لاتزال تجدي نفعا حتى هذه الأيام.

بعت بعض البطاقـات لكن التجـاوب لم يكن كمـا قـد تـوقعت، والعبـارات جميعهـا أعطت مفعـولاً واحـداً. ربمـا المـرء يفضـل أن يضع أرقاماً من اختياره !!! رغم أني كنت أنوه دائماً وبكل مناسبة، أن الأغلبيـة العظمى من الـرابحين هم من اختـار البطاقـة بطريقـة عشوائية. مررت بالكثير من المطاعم والمتاجر والأكشاك ومواقف الحافلات، كـان المـترفون والمنعمـون أصـحاب السـيارات الفـاخرة والمتـاجر الفخمـة، هم الأقـل شـراءً ولباقـة ً. رحت ابتسـم كأبلـه يصادق على بلاهته، بصدر رحب، ولم أبع إلا القليل القليل.

على عتبـة إحـدى صـالونات الحلاقـة، الموصـدة الأبـواب حفظـاً للبرودة. نظرت إلى الداخل حيث جلس ثلاثة رجال وامرأة، وعلى كرسـي الحلاقـة جلس رجلان بملامح وقـورة. وضـعت يـدي على مقبض البـاب، راودني شـعور بـالإذلال المتوقـع مسـبقاً، رغم أنـي كنت اطوف الشوارع كلها وأدخل العديد من المتاجر التي لم أشـعر بها كما هنا، هنا تحديداً تحسبت وجود الإذلال خلف الزجاج، لكنـي

لست متسولاً وعليهم أن يعلموا ذلك، لا بل هم يعلموه جيداً، وعدم شراء أي بطاقة او الرفض، فهذا لايعني إذلالاً على الإطلاق. لكني سأعتبره كإهانة من الدرجة الثالثة، أو نوع من الإشارة المبطنة، لعدم ضرورة وجود من هم مثلي على وجه هذه الأرض. ثواني قليلة ثم وجدت نفسي بالداخل، حيث جرفني ثلاثة شبان وقفوا ورائي لفتح الباب، حيث لم أستطع التراجع. دخلت ثم بقيت واقفاً، بدت لي رائحتي كريهة، لكنها لم تكن كذلك، ربما النظافة المفرطة ورائحة المعطرات ومساحيق الحلاقة الممزوجة ببرودة مكيف الهواء، جعلت من احساسي بالشك يتنامى.

وجهت نحوي نظرة من المرآة نظرة ترقب واستفهام. الزبون يحدق في قميصي، ومصفف الشعر يركز على جبهته وهو يتحدث مع أحد الزبائن أصحاب البقشيش المرتفع، الذي جلس إلى كرسي و أسدل رأسه إلى حوض بلاستيكي اسود مثبت إلى مغسلة، وراح الموظف (الشمبوانور) يغسل له شعره بسرور داخلي.

عم الصمت بعض الشيء، صمت يصاحب موسيقى خافتة جداً، ورجالا تحدق في هواتفها الذكية.

نظر مصفف الشعر إلي من دون أن يتكلم، وبما أن حساسيتي تجاه

نفسي مفرطة للغاية، أصبحت حنجرتي عاجزة عن التحرك وكـأني فقدت النطق، ثم قال لي :

- تفضل يا سيد، أي خدمة ؟!

حــدقت في نقطــة ثابتــة في وجهــه، وأردت منعــه من تكــذيبي، أو إجباره على أن يعاملني كزبون من الدرجة الممتازة.

رتبت العبـارة بسـرعة ووجـدت الطريقـة المثلى للحفـاظ على مـاء الوجه، سعلت ثم قلت :

- كنت قـد طلبت مـني في الأسـبوع الفـائت المجيء مجـدداً لشـراء ورقـة لوتـو، كمـا تعلم السـحوبات سـتجري غـداً والجـائزة وصـلت لمستويات جنونية.

نظر مستغرباً وقال بطريقة مبطئة :

-أنا لم .... قاطعه أحـد الزبـائن الجالسـين وقـد طلب مـني ورقتـان، لم يهتم لأية ارقام، أعطاني النقود ودس الورقتان في جيبه من غير مبالاة، وقبـل أن أخـرج أخـذت العـدوى مفعولهـا وطلب مـني آخـر ورقتين أخريين.

عمتم مساء ايها السادة،اتمنى لكم حظا جيداً، نعيماً ! قلت باعتزاز.

انتهى يـوم عملي الشــاق وقـد بعت نصـف البطاقـات تقريبـاً، هـذا

الشارع ذو فأل حسن، ربما أسلوبي أصبح أكثر تطوراً، أو ربما المصادفة وحدها. من يدري.

معظم المتاجر والحوانيت أغلقت، وبدا الشارع خالياً، رائحة غريبة لجو قد تغير فجأة، لم أتوقع شيئاً غريباً لكن إحساس ما عصف بين ضلوعي. كان الشابان بانتظاري، ولأني لم أتوقع شيئا كما قلت، او ربما جرت الأمور بتسارع لا يسمح لي أن أتوقع شيئاً، أمسك احدهما بخناقي قائلاً : هذه منطقتنا أيها الحيوان، ولا يسمح لامثالك بالعمل من دون إذن، نحن نبيع كل شيء هنا.

لم أرد العراك تماماً ولكني لم أستطع ان أرضخ ليديه اللتان باتتا موجعتان جداً، أمسكت يديه لأجبره على ترك رقبتي، لكن لكمة سريعة من الشاب الآخر جعلتني مسوى على الأرض، وحدها أرقام اللوتو كانت تدور في رأسي. استجمعت نفسي وأحشائي، وضغطت عليهما، ربما فقدت بصري لثوان قليلة، لم استطع تفسير أي شي، كيف حدث ذلك وبأي سرعة !! لكني استطعت بعد جهد مطول الاستناد إلى حائط ما، لم أدرك أين كان الحائط أو من أين أتى، لكني أدركت وبسرعة أن بطاقاتي قد اختفت جميعها.

لينا والأصدقاء :

بعـدما أصـبحت عـاطلاً عن العمـل مجـدداً، وفقـدت حصـانتي الدبلوماسية، كبائع لوتو رفيع المستوى، عـدت للجلـوس في الغرفـة المقيتة، أطـرح خيـاراتي الممكنـة من جديـد، أمحص بين إعلانـات الجرائد، نسخة عاطلة عن العمل كآلاف النسخ الأخـرى الـتي تقـرأ جرائد التوظيف نفسها، والذين تتفتق أوعيتهم الدموية وهم يحـدقون في اعلانات طلبات العمل، والتي لا تنسجم إلا مع المختارين، نخبة النخب، والذين جاؤوا إلى هـذا العـالم ليتناسـبوا خصيصـاً مـع تلـك الإعلانات. كان علي ان أتعلم أربعة لغات، وامتلك من الخبرات ما لايعد ولا يحصى، بالإضافة إلى المهـارات الخارجـة عن الطبيعـة، لكي أعمل في متجر أحذية على سبيل المثال، سيما أن التعامـل مـع الاحذيـة، شـيء حسـاس لا يحتمـل الخطـأ ولا يتناسـب حـتى مـع المبتدئين متوسطي الخبرة. كـان بعض أربـاب العمـل المحـافظون جداً يتنازلون عن بعض الشروط:

مطلوب فتاة بلباس محتشم، الراتب مغري.

ذكيات عصرهن وحدهن يفهمن شيفرة مورس تلك ويقرأن الاعلان بكل وضوح : مطلوب فتاة بلباس مغري والراتب محتشم.

بعض أرباب العمل يقولون في خطابهم الأول مع موظفهم الجديد: الإخلاص هو الأهم، انتمائك الطائفي لا يهمنا أبداً.

ويستطيع الموظف الفطن أن يقلب المعادلة كما تجري العادة، وسيكون أقدر على البقاء.

استمرت المباحثات لمدة ثلاثة أيام، بعد أن اتصل مدير الفرع بمسؤول التوظيف الذي يقضي إجازته في روما، وبعد العديد من المكالمات العابرة للقارات، وافقوا على توظيفي في مطعم الوجبات السريعة.

منذ اللحظة الأولى لدخولي ومباشرتي العمل، لفتت انتباهي الموسيقى الموضوعة للزبائن، وطريقة تحدث محاسبة الصندوق مع الزبائن،و شعرت بقوة أننا أنا ولينا سنصبح أصدقاءً.

لم تكن لينا توحي إلا بالذكاء، شعرها الأسود المجدول بعناية، ووجهها المشرق ونظرتها الثابتة التي تدخل إلى الأعماق ولا تغادرها إلا بعد ان تعمل بها رغبة وقلقاً. أي جمال متوحش قادر على شرح نفسه بعيداً عن الكلام.

نظرت إليها ذات مرة وهي في استراحتها القصيرة تدخن سيجارتها

بجانب المطعم، ترفع يدها التي تحمل خاتمان أسودان، يتربعان على أصابع طويلة ..الأصابع الطويلة تنفذ إلى داخلي كالهلاك. لم تنظر إلي لكنها كانت تراني.

نادراً كنا نستطيع التحدث خلال ساعات النهار، حيث أن استراحة كل منا لا تتقاطع مع الأخرى، ومن النادر استراق الأحاديث أثناء العمل، فالمطعم ممتلئ بشكل دائم، لكن كنا غالباً ما نتبادل ابتسامات التفاهم، ابتسامات التأكيد على سلوك بعض غريبي الأطوار، والمغفلين والسذج، وأسئلتهم التي لا أجوبة لها مطلقاً. صنع ذلك بيننا رابطة ودية، رابطة معرفة عميقة، رابطة غير واضحة لكنها دافئة جداً. عادةً ما تستخدم لينا عبارة (كنت سأخبرك) حينما أتحدث عن شيء يفاجئها ويعجبها بشدة.

اكتشفت في لينا الخيط الرمزي الذي يجمع بين ما أملك وما أفقد، كنت أتوق لرؤيتها كل يوم، وأن أركز على عينيها الفحميتان، أقرأ ابتسامة رقيقة توحي بالفطنة، وأستشعر حرارة زفيرها على بعد ألف ميل، وأسمع صوت أنفاسها الهادئة المطمئنة التي تخفي ألف حصان بري أسود يشقون طريقهم بهمجية طبيعية، القوة اللامرئية التي تعتمل في الصدور وتتكسر في الضلوع كصخور تتفتت من قمة جبل.

أحيانـــاً كنـــا نجلس بعــد انتهـــاء ســـاعات العمــل العشــر في المقهى المجـــاور، مقهى الرصــيف المــزدحم، نعب دخـــان ســجائرنا بنهم، نراقب تدافع بشري أحمق، عمـال، مـوظفين، متسـكعين، منبـوذين، عاهرات، أشقياء والعديد من متعددي الجنسيات الذين خلقوا ليمشوا على هذا الرصيف. نظرنـا اليهم بابتسـامة سـاخرة، الابتسـامة الـتي باتت عرفا ولغة أشد ايجازاً وتعبيراً.

بعد بضعة شهور وفي أمسـية من الأمسـيات الصـافية، والـتي تولـد طمأنينة نادرة نابعة من لاشــيء، والـتي لا يمكن اكتشـاف منشـأها، طمأنينة صيفية صافية كنشوة من الرضا أوغبطة بعد مديح جماعي لانجـاز تافـه مخـادع، ربمـا فقـط الطقس يلعب دوراً في النفـوس؛ قـدمتني إلى أصـدقائها فيليب وميريـام وشـادي؛ جلسـنا في الغرفـة المشتركة نشرب البيرة وندخن ونستمع لموسيقى الجاز، كـل شــيء بـــدا مريحـــاً ويـــدعو للســـكينة. راح فيليب يشـــرح عن بعض الموسـيقى، ويـثرثر عن الأذواق والحفلات، وضـحكنا بشـدة على قصة رواها عن عامل متجر غسيل الألبسة، الذي طلب منـه بعضـاً من حشـيش الكيـف حيث وقـف فيليب في منتصـف الغرفـة متخـذاً وضعاً تمثيلياً وبدأ يقول:

- هيه ياصديقي، لماذا اخترتني لمثل هذا السؤال آه.

ثم أننا لانعرف بعضنا ومن أين لك أن تظن بي هذا .
ثم ذهبت إلى مرآة قريبة في المتجر وقلت له هل ترى ســواداً تحت عينيَ ؟ هل ترى احمراراً ؟ أم أني مبتسم جداً وغير مبالي وتبدو علي علامات النشوة.

أعطني البنطال من فضلك .

أحضر الموظف البنطال وأخرج كيسا صغيراُ جدا كانت العشبة السحرية بداخه : أخرجتها من البنطال قبل التنظيف **!!** أرجوك من أين لن أخبر أحداً**!!**.. قال الموظف بهدوء.

ضحك الجميع بشدة وأشعلنا سجائرنا كنوع من التأكيد لدماثة الطرفة، و سألته ميريام عما إذا أخبره بالسر العظيم.

- بالطبع لن أخبره وخصوصاً أنني لا أعرفه، ثم أن الموضوع ليس ذا أهمية، فالآن تلك هي موضة وهي متوافرة في كل مكان. لكن الناس تحب دائماً إعطاء الهالة السرية للأشياء لتحافظ على متعتها وقدسية طقوسها. كل ما فعلته أني بعد أيام قليلة أخبرته أن الموزع قد أصبح في السجن، سألني بدهشة : هل سيحبسوه؟ لا بد ان الكمية كانت كبيرة**!!!**. لكني أخبرته انه بالسجن لأنه سرق الكهرباء من جيرانه بطريقة غير قانونية.

هنا عاد الجميع للضحك بطريقة جنونية. ساد الصمت بعدها قليلاً

وخرجت لينا إلى الشرفة، و هنا فقط عدت لاغترابي الفجـائي، مـع الإحساس الذي يأخذني من لحظة إلى لحظة أخرى كمقصلة ترسـل بزبائنها إلى عالم موازي. شعرت بأني أحترق، رغم أن كـل شـيء كان هادئـاً ومثاليـاً، إلا أن لقـاءاتي الاولى جميعهـا عـادة مـا تحمـل طابعاً خاصاً. الأشخاص الجدد المـترافقين مـع أمـاكن جديـدة عـادة ماتحمل إلى رزمـة من الافكـار الخياليـة وحنينـاً لا مفهومـاً، لوحـة بوب مارلي على الجدار، شـعار فرقـة بينـك فلويـد، ولوحـات فنيـة بدون اطار، كتب مبعثرة على الارض، أوراق سجائر غير ملفوفـة منتثرة على الطاولة، زجاجات كحولية نصف فارغة متفرقة، علبـة كـبريت ومناديـل ورقيـة. هنـاك في هـذا العـالم أشـخاص دائمـاً لا يكـترثون لقضـايا كـبرى، كـإطلاق نـار أو زلازل او حرائـق، أو صرخة جار مزعجة. لا يكترثون لما يهذر العامـة، لا يفسـرون أن انتماء أحدهم لجنسية معينة قد تجعل منه عامل بناء بالضـرورة، أو سائق سيارة أجرة في انكلترا، او عاملة تنظيف غرف في دبي. كل تلك التـأويلات تغـدو سـخيفة ومتطرفـة، لكنهم سـيكترثون حتمـا اذا فرغ كيس التبغ، أو توقفت الموسيقى للحظة في ليلٍ طويل.

النادل الجاهل :

قـررت الإدارة إغلاق المطعم لمـدة أسـبوعين، لإجـراء إصـلاحات فنية وتجديد مكنات الشواء.

أعطي جميع الموظفين إجـازة بلا راتب لمـدة أسـبوعين، وفي مثـل هذه الظروف ليس بوسعنا إلا الانتظـار والقبـول بإجـازة بلا راتب، خصوصاً أن الجميع يعي أن بوسع الإدراة إجراء تحديثات تتجـاوز الأثاث والمكنات وإنما تحديثات بشرية أيضـاً، أحـد مـا لن يتـورط بإرسال مثل تلك الإشارات.

قبل انتهاء الإجازة بخمسة أيام اتصل بي مدير الفـرع وأخـبرني مـا كنت أشعر به منـذ البدايـة : بعـد أن قـامت الإدارة بتلـك التحـديثات وبعد الدراسة المتأنية للوضع المالي لكل فـرع على حـدى، قـررت الإدارة آسـفةً على إقالـة أحـد المـوظفين، وبمـا أن بـاقي المـوظفين يتمتعون بالأقدمية فقد قـرروا إقـالتي متمـنين لـي حظـاً جيـداً وعملاً مناسباً في أسرع وقت ممكن.

لم تتجـاوز المفاجـأة بالنسـة لـي أكـثر من خمسـة دقـائق. لم أعلم في البداية أن تكرار الخيبات المهنية بخواتيم غـير متوقعـة، وتغيـيرات

ظـروف العمـل المتكـررة سـتجعل من الأمـور أبسـط مـع مـرور الزمن، وأكثر قدرة على التكيف وامتصاص الصدمات.

أجـريت حسـبة بسـيطة كالعـادة، لمعرفـة المؤونـة الماليـة ومـدى كفايتها. أستطيع الصـمود لمـدة شـهر بـدون عمـل، وعـدت لمتابعـة الإعلانات التي واظبت على قراءتها في الفترة السابقة.

لم أستطع المكوث في الغرفة، تفادياً لضيق أو مزاج عكر قـد يـأتي بشكل مباغت.

خـرجت مسـاءً في الطقس الهـادئ والمثـالي والبـاعث على راحـة نفسية عميقة قاصداً الكورنيش الشاطئي الغـربي (الروشـة). وكنت أعلم جيداً مدى طول المسافة بين بدايته ونهايته، ولـذلك كـان لـدي متسع من الوقت للمشي على طول الخـط، وتأمـل التفصـيلات الـتي وهبتهـا الحيـاة لي كي أراهـا، تفصـيلات تشـكل وحـدة متكاملـة لا أشكل أنا أي جزء منها، التفصـيلات ذاتهـا الـتي يراهـا أي شـخص على أنها شيء واحد متماسك من دون أن يكون منخرطاً فيه بشـكل مباشر. لن تمنع ظروف شخصية يمربها إنسان مهما علا شأنه، أو حـدث دولي مهمـا بلغت حدتـه، أو زلازل ومجاعـات وإضـرابات نقابات العمال من إعادة تماسك الصورة التي يراها الإنسـان بعينيـه ويشـعر بأنـه هـو ماينقصـها، فيمـا تبادلـه تلـك الصـورة الشـعور

المعاكس على أنه حدث مؤقت لا يضيرها فقدانه.

نظـــرت إلى الأشـــخاص الـــذين يصـــطحبون كلابهم في النزهـــة المسائية، والمهرولون الرياضـيون، والعجـائز الـذين أدوا رسـالتهم بـإخلاص. شـرع بعض الشـبان اليـافعين بـالرقص على الرصـيف بجوار السيارة التي كـانت على الأغلب كـانت مسـتأجرة. لم يعـبئوا بالمارة بتاتاً، وإنما شـرعوا بتضـخيم صـوت المسـجل أكـثر وأكـثر وتناوبوا على شرب البيرة.

اشتريت زجاجة من البيرة المرطبة، راقبت المارة قليلاً ثم ضحكت ثلاثـــة ضـــحكات بـــدون أســـباب ملموســـة، ثم أدرت ظهـــري إليهم ونظـرت إلى البحـر مباشـرة، لم تكن هنـاك أيـة سـفن، فقـط طـائرة كانت تبحر في السماء ظننتها ستلامس البحر للحظة، لم أعد أســمع ضجيج المارة، حيث كان بإمكاني الإنتقال إلى عالمين متـوازيين ؛ عالم قـابع ورائي، باعـة ومتجـولين وطبقـات اجتماعيـة محمومـة تتنـــاحر على الاســـتهلاك والكســـب - عـــالم لايســـبب الا الضـــيق والصـداع. وعـالم آخـر أمـامي مباشـرة، سـاكن ومقفـر، وغـامض كلغـز، كـالبحر الـذي تتلاطم أمواجـه بـداخلي تمامـاً، بحـراً يحـاكي بحر.

بعد منتصف الليل بقليل، لم يعد هناك إلا القليل من المتسكعين والسكارى، سرت قليلاً لعلني أجد سيارة أجرة مشتركة تقل الركاب بسعر مقبول.

في الطرف المقابل كان هناك مقهى ضخم وضع على زجاج واجهته التحتية إعلانا للتوظيف، سجلت التفاصيل وانتظرت حتى اليوم التالي.

بعد أن أرسلت طلب التوظيف المرفق بخبرات كثيرة ليست ذا شأن على الإطلاق، اتصلوا بي بعد أسبوع وحددوا لي موعد المقابلة، كان على كالعادة التهيؤ للمقابلة والادعاء أني خبير تماماً، كنت أعلم دائماً كيف تسير الأمور، فالأشخاص عديمي الخبرة والحساسين للغاية يضاعفون جهودهم لإثبات قدراتهم مخافة الإحساس بالإهانة والإذلال.

لحسن الحظ كانت أسئلة المدير مقتضبة، ولم يعرض علي أي اختبارات عملية وانما اكتفى بتصديقي. ربما الثقة بالنفس المفرطة والتي لابديل عنها لشخص يقف على عتبات الجوع والتشرد، كانت قد جعلت مني شديد الإقناع وطليق اللسان.

وزعوا علي لباس المطعم ومأزراً بحزام أخضر يربط عند الخصر ينسدل إلى الارض كتنورة نسائية محتشمة. جاء النادل الذي أوكل

بتسهيل مهمة انخراطي في العمل، والذي كان مسؤولاً عن تقييم قدراتي أيضاً، يكفي بعد ثلاثة أيام أن يدلي بكلمة واحدة ضدي حتى يطردوني نهائياً.

- أنا اسمي شارل وأعمل هنا منذ خمس سنوات، وسأساعدك قدر المستطاع. بعد نصف ساعة سيشرع الزبائن بالمجئ، هم

لا يسببون ازدحاماً في الساعات الاولى ولكن حين تحين العاشرة يبدأ معظمهم بالتوافد.

سنرتب وضعية الطاولات ونتأكد من نظافتها، ونتأكد من تواجد علب المناديل الورقية والسكر وباقي المرفقات.

لقد أخبروني أنك عملت في أحد المقاهي لمدة ليست بالطويلة. ربما مسألة أيام وستعتاد من جديد على الوضع.

سنرى!.

ــ آه ! نعم بالطبع لقد عملت. بالطبع، سأحتاج إلى وقت قصير وسأسترجع مهاراتي جميعها.

- إنما قل لي ! هل أنت مرتبك ؟

- لا لا على الإطلاق، إنه اليوم الأول لا أكثر ولا أقل.

- حسناً.

ابتسم وانطلق يطوف حول الطاولات بحيوية.

لقد كان الإرباك يقطر مني، وكنت أعمل على إخفائه بجهد مضـن، تبعتـه في البـدء، ثم ذهبت وحـدي، ثم عـدت أتبعـه، وأنـا أراقب نظراته، لكي أفسر، هل يتـوجب علي الانطلاق وحـدي أم علي ان أتبعه وأن أدعي التيقظ لمعرفة بعض التفاصيل الخاصة بالمطعم.

نظر إلي مرة مبتسماً فتبعتـه، ثم نظـر مـرة أخـرى بشـكل خـاطف لاحظته جيداً، فقررت ان أذهب وحدي.

دخـل الزبـون الأول وجلس على الـتراس الخـارجي، تخفيت خلـف الجزء الفاصل بين التراس والقسم الداخلي، وانتظرت السـيد شـارل كي يقترب من الطاولـة وتفرسـت بهم كـالثعلب المتخفي.. حين دنـا صديقي من الطاولة ظهرت أنا باستعجال مبـالغ بـه، ووقفت خلفـه، ورحت أترقب بحذر.

- بونجور ميسيو.

- بونجور.

- فنجان قهوة.

ذهب شارل وتبعته، لم ينطق بأي كلمة، ولم أبرر أي شيء مـع أني كنت أهيء مئات المبررات بثانية واحدة، مبررات مقنعـة تتأرشـف بدماغي بسرعة منقطعة النظير.

لكني لم أقل شيئاً، ربما أنا لم أخطأ بعد، ثم لا يحق لأحد أن يحاكمني من التجربة الأولى، لكني بت أعتقد ان لديه من الخبرة الكافية ليدرك أني لم أعمل في اي مطعم على الإطلاق.

ولذلك رحت أترقب دخول زبون آخر كي أهرع اليه، طالما أن الموضوع بسيط جداً وستسير الأمور كما سارت مع الزبون الأول.

دخل رجل يرتدي بزة أنيقة، ترافقه فتاة ترتدي سترة سوداء وسروال قماشي أسود، تبدو على هيئتهم موظفي مكاتب، أو بنوك.

ذهبت إليهم بخطى منتظمة، ورسمت على وجهي ابتسامة لطيفة بلهاء.

- بونجور

- بونجور

وقبل أن أتابع السؤال الكلاسيكي الذي يسأله نادلو المطاعم

أجابت الفتاة بكلمة فرنسية معقدة، وأرفقتها بكلمة أخرى أكثر تعقيداً، وطلب الشاب بالفرنسية شاياً كنت أعلمه جيداً فالشاي ذو لفظ متشابه بمعظم اللغات اللاتينية.

شحب وجهي فجأة وبدأ الإرباك الذي كنت أخفيه يظهر رويداً رويدا، لم يكن أمامي إلا ترقيع الثوب الذي بدأت أمزقه منذ مجيء الزبون الأول.ورحت أقلب باللوحة الالكترونية لعلني اتذكر ما

قالته ..عبثاً..

(عفواً أيها السادة، إن معظم الطلبات التي ندونها نأخذها باللغة الإنكليزية، هل يمكن أن أسمع من جديد ما طلبته الآنسة).. أردت قول ذلك وليحدث مايحدث.

فكرت .. عفواً ..عذراً .. باردون. نعم تلك الاخيرة مناسبة جداً!!

باردون ...

وإذا بصوت خلفي ودود يظهر وكأنه ملتصق بأذني.

- خمس دقائق ليس أكثر، هل تودون أي شيء آخر.

- ميرسي.

قالوها وهم ينظرون إلي بطريقة محيرة، لم تكن احتقاراً، وانما تعجباً، وربما ترقباً لما كنت أود قوله قبل أن يقاطعني الصوت.

ذهب شارل وسرت خلفه. لم أحاول ان أعطي أي مبررات

إنما قلت على سبيل التلميح، أني كنت اود ان أسال السيدة من جديد عن الطلب لأني لم أجد ماقالته بين القوائم الموجودة في اللوحة الالكترونية.

اكتفى بهز رأسه مبتسماً.

يا لغبائي، ماذا لوقال لي وماهو الشيء الذي طلبته السيدة، ماذا لو قال لي خذ قلماً وورقة ودون ماتريد ومن ثم نبحث عن ذلك إن

كانت القوائم الكثيرة في اللوحة تزعجك.

الماكر، ربما يتهيأ للتوصية بطردي اليوم وليس غداً.

لقد كان اليوم كدراً وشاقاً. احتقرت نفسي طيلة الثماني ساعات التي مرت ببطئ قاتل، أما صمت شارل فقد كان مهيناً أكثر مما لو أنبني واستفزني بشكل مباشر.

لم أرهق جسدياً بعد، حيث أنه لم يأتي زبائن كثر وعلى غير عادة كما سمعت من موظف المطبخ.

عشر محادثات كانت فاشلة جميعاً، وكان الصوت الخلفي دائماً يحفر رأسي مشيراً إلى وضاعتي كاشفا الكاذبين والمحتالين عديمي الخبرة والثقافة اللغوية.

جاء نادل ونادلة أخرين يناوبان على الفترة المسائية، ثم تحدث المداورت بيننا في كل أسبوع، حسب الجدول.

- صافحته ولم اقل أي كلمة .

- أراك غداً . قال وقد ودعني مبتسماً.

إن ذلك الوغد لايريد أن يشير إلى انه سيتسبب بطردي، ولماذا سأسميه وغداً، إن كان الذنب ذنبي. إنه يسخر مني.

سرت إلى المنزل عند الساعة الخامسة، مقطب الحاجبين وأشعر بالجميع ينظر إلي كعلقة، أو لصاً محتالاً سرق عجوزاً تعاني من

مرض السكري.

هذا هو الشعور المهين الذي يدفعني جاهداً للبقاء في العمل هذا هو الشعور الذي يعطي الخبرة الفجائية والتي تسقط من السماء كمساعدة، لم أعد أريد العمل كمصدر للعيش بقدر ما أريد ان أكفر عن وضاعتي وخجلي في ذلك اليوم.

خمسمئة كلمة متعلقة بالمقاهي، من أنواع القهوة والشاي والأعشاب والعصائر والكوكتيلات الفرنسية، خمسون جملة الأكثر استخداماً ولباقة في عالم التواصل مع الزبائن في عالم المقاهي، عملت على استيعابها منذ وصولي للمنزل حتى الساعة الثالثة صباحاً.

في الصباح ذهبت قبل موعد العمل بساعة كاملة. كان موظف المطبخ موجوداً وقد تفاجئ بقدومي المبكر.

- علي التحضير قبل قدوم الزبائن بساعة على الاقل

أما انت **!!** فلما هنا. قال بهدوء وهو يقطع بعض الخس.

- إنه اليوم الثاني وأنا متحمس، وعلي أن أحضر بعض الأشياء.

تناولت اللوح الإلكتروني ورحت أقارن بين الأشياء التي أعرفها والتي لم أكن قد حفظتها بعد. كان معظمهم موجوداً وهو الشيء الذي بعث السرور في قلبي، ليس المهم أن ألفظها جيداً في اليوم الأول بقدر ما يتوجب علي أن أسمع بشكل جيد وأن أسهل أخذ

الطلبات بدون إحراج.

لقد اصبحت جاهزاً، وجاهزاً جداً، إلا اذا حدث ما كنت أفكر فيه طيلة الليلة الماضية وأنا منغمس بين كلماتي الفرنسية؛ أن يتم طردي وأن لا أعطى فرصة أخرى ليوم ثانٍ على الأقل.

أنهيت نصف ساعة شاقة أقلب باللوح الالكتروني، وحين انتهيت، كان شارل يقف إلى جانبي ينظر باستغراب بابتسامة غير مفسرة كالعادة.

انطلقت بين الطاولات أرتب وأدقق وأمحص، وأهيء نفسي لزبوني الأول ورحت أتخيل حوارات متعددة وردود وخيارات وأطروحات كانت تسلخ رأسي بسياطها.

أنا مستعد مستعد لرد الأهانة لصاحب البزة وفتاته تلك، مستعد لرد الإهانة بتدوين الطلب بشكل صحيح ورسم ابتسامة المنتصر حينما سأضع طلباتهم على الطاولة كما أرادوها بالفرنسية، كلمات فرنسية تطابق تماماً ما سوف يحضر على الطاولة !!!

جاء الزبون الاول، اسرعت اليه بثقة، ثم حييته، نعم اها.. أفوكادو بالعسل، الزبون الثاني قهوة .. نعم، انها باللغة العربية ..قلت و ضحكت في سري.

الزبون الثالث : زنجبيل مع الليمون من دون سكر.

قلت : بكل الاحوال هو بدون سكر، السكر موجود على الطاولة.
كانت احدى افضل الجمل التي حفظتها البارحة.
ثم الرابع، والخامس ...
اللعين، أين هو اللعين شارل، إنه اليوم لا يقف إلى جانبي لأرد له ابتسامته المهينة تلك، آه ممكن، ولماذا يتكبد عناء ملاحقتي اذا كان سيتم طردي في كل الأحوال.
في كل الأحوال، رددتها بالفرنسية وسخرت مني باستهزاء.
عند الساعة الحادية عشر، كنت قد تلقيت ثمانية زبائن، سارت الأمور معهم على أكمل وجه باستثناء مرة واحدة، حين طلبت من الزبون إعادة التوضيح، كان فيها شارل جاهزاً، أي لعنة وأي حظ عاثر، هو هنا فقط حينما أخطأ.
هل يمارس السحر الاسود ؟ ام أنه يعلم زبائنه جميعهم !!
عندها قرر النطق اخيراً ولم يكتفي بابتسامته المعتادة :
أرى أن الامور تسير بشكل أفضل اليوم.
بث شارل في ذلك اليوم السرور في نفسي، لقد شعرت بأني استعدت سيطرتي على نفسي وظفرت بما كنت أنوي فعله
عملت لمدة ثلاثة أشهر كانت الأفضل على الإطلاق.
انتظرت الرجل ذو البزة الرمادية وصديقته، لكنهما لم يعودا

أبداً..مازلت افكر في ذلك .

رقصة في الأشرفية:

في إحدى الأيام الماطرة، الدافئة نسبياً، كانت قد دعتني تاتيانا إلى منزلها في حي الأشرفية، ذلك الحي الذي لايمكن لصاحب حس فني، أو بذور موهبة، أن يخرج منه من غير أفكار خلاقة، أبنية من الطراز الفرنسي، أسماء شوارع تعود إلى القرن المنصرم، حوانيت متلاصقة دافئة، وحانات دافئة، وأدراج تصل الأحياء المنخفضة بالأحياء العليا، أدراج ملونة دائماً مايتواجد على جانبها، فوارغ زجاجات كحولية، وأعقاب سجائر كثيفة، أو حتى بقايا نغمات موسيقية وضحكات، مازالت تسبح في الهواء، من مخلفات الأمسية الفائتة .

وصلت تقريباً، كنت خاوي اليدين، مبرري الوحيد، أني لم أرى أي متجر لبيع الزهور من بداية الشارع لآخره، قررت شراء زجاجة من النبيذ، ربما بعد الانتهاء من شربها، استطيع ان أشرح اني لم أجد أزهاراً.

كانت تلك المرة الأولى التي أدخل بها إلى ذلك المنزل المتحف، بيانو ضخم في مقدمة المنزل، دائماً مايضعوا ذلك الشيء في مقدمة المنازل، لا أعرف السبب، ربما لأني لا أمتلك منزلاً أو بيانو، لأعلم ماهو السبب أساساً.

زُرعت على الجدران لوحتان، انطباعية بتموجات مرحة، وكلاسيكية لم أهتم بها كثيراً، ورحت أفرك ذقني قليلاً، قالت من بعيد أنها لوحة أهداها إياها أحد الأصدقاء، رسمها في البرازيل، حين كان موفداً هناك. إلى الأمام قليلاً كان هناك طبق نحاسي معلق، يضفي روحاً ودفئاً شديدين، سيما مع السجاد الداكن، التي كانت ألوانه تتفق مع اللوحتان أيما اتفاق.

جاءت رائحة القهوة من المطبخ، وأحدثت أثراً كأثر الصاعقة، أي صفاء يمنحه هذا المنزل، لم أنتبه جيداً لمظهر تاتيانا عند البدء، والتي أهملت شعرها البني الفاتح، وبطريقة فوضوية تدلى إلى كتفيها وعنقها الأبيضان البضان الشهيان. لم تضع أي مستحضرات تجميل، باستثناء كحل العينين، الممتد إلى الأطراف قليلاً بشكل مغزلي، ذلك الكحل بالنسبة لي، له أولوية قصوى. ثم وضعت القهوة على طاولة الشرفة الدائرية الصغيرة، بجانب باب

المطبخ، مطبخ بابه مفتوح على شرفة فيها طاولة بغطاء أحمر وأزرق، بالقرب من تاتيانا، أي مشهد فردوسي مقدس ذاك .

جلست ببطئ إلى الطاولة المستديرة، لم أعد أمتلك تلك الحماسة القديمة، أو تلك المقدرة ذات الجودة العالية، لإثارة مواضيع غير مكررة، وحيوية، أو غير مملة على أقل تقدير.

عبرت لها عن سعادتي الخالصة لرؤيتها، وبعد الكثير من الإنقطاعات، توصلت في رأسي إلى صيغة تمهيد، قد يجعل الأجواء أكثر حميمية، وعندما قررت البدء، جاء صوت ما من المطبخ المقابل للشرفة.

الشاب : تاتيانا **!!** تاتيانا الجميلة .

قفزت عندما سمعت صوته بغبطة، قفزة ظننتها مبالغ بها، وعانقته لمدة لا تقل عن الدقيقة **!!**.

الشاب : لديك ضيف، ظننتك لوحدك. كان الباب مفتوحاً، وقد وددت أن أسألك الذهاب معنا اليوم بعد بضع ساعات، إلى حانة أرميتاج.

نظرت إلي نظـرة خاطفـة، يوشـك المـرء أن لا يشـعر أنهـا نظـرت حتى .

تاتيانا : سوف لن أعطيك وعـداً قاطعـاً، لكن اذا اسـتطعت فسـيكون من دواعي سروري .

ودعته إلى منتصـف المـنزل قليلاً، وعـادت وهـيي تتكلم في هاتفهـا مـع أحـد أقربائهـا على مايبـدو، وقـد اتكـأت إلى جـانب البوتوغـاز تسخن القهوة من جديد .

نظــرت إلى المبــنى المقابــل وإلى الأعلى قليلاً، أردت التظــاهر باللامبـالاة، كنت أعلم انهـا تريـد الـذهاب وبرغبـة عارمـة، لكنهـا قالت له ماقالته، كنوع من الكبريـاء والمماطلـة، أو التشـويق ربمـا، ولا أقول هنا أنه مراعاة لنفسي، أو لزيارتي .

كنت لا أزال أحدق إلى تلك الناحية، وكـانت قـد جلسـت منـذ برهـة قصـيرة نسـبياً، ولم ألحـظ ذلـك، وبصـوت واضـح وبنغمـة خاصـة صريحة قالت : هل تعجبك السماء لهذه الدرجة .

أجبت : إن هذه المدينة جميلة، جذابة، وتكاليف معيشتها باهظة، محفزة، ولكني متأكد أن مكوثي بها أكثر من ذلك سيصنع مني مجنوناً.

تاتيانا : مدينة تصنع من الإنسان مجنوناً، هي مدينة رائعة، وعلى الإنسان أن يسعى اليها بقدميه، وبالتالي أن يفعل مابوسعه لكي يصبح مجنوناً، المجانين هم السعداء، هم المسالمون، اللامبالون، الذين فهموا هذه الحياة على حقيقتها، وكانوا الأجدر بها .

نظرت اليها باستغراب، وكأن إشارة من سماء لاحت لي، لي أنا تحديداً، كان خطابها أشبه بسؤال أو توسل منه إلى حوار طبيعي.

كيف أنّى لها أن تؤثر بي هذا التأثير .فاضت بي جرأة، لركوب بحر، أو لقفزة من أعلى جبل، أخذتها من يديها ومعنا زجاجة النبيذ الرخيصة التي لا تحتاج إلى مفتاح، ونزلنا للشارع الذي هبط عليه الليل أخيراً. لم تسألني إلى أين، أو ماذا تفعل، لم تتردد أبداً، مشينا في شارع ضيق، وركضنا إلى شارع أوسع وهربنا من المارة، ثم إلى رصيف واسع يمتد إلى أحياء مجاورة، وتناوبنا هناك على شرب النبيذ، بنهم، وسعادة، وبدأنا الرقص، الرقص الذي كان جرياً

ورقصاً بآن واحد، قبلتها بغتةً، وهي أيضاً ثم عانقتني لمدة لا تقل عن الدقيقتين !!

ليلة السبت:

كان الشارع خالياً باستثناء الذاهبين لحفلة يوم السبت، فقط يوم السبت يجعل الحياة قابلة للتحمل. مشيت بطريقة متعرجة، لايوجد الكثير من الارصفة، سيارات كثيرة، الزوجة بسيارتها المستقلة، والزوج بسيارته المستقلة، حتى السرير المزدوج أصبح من الكلاسيكيات والشكليات التي ولى زمنها. أنا لم أشعر بشيء من قبيل الحسد الطبقي، أنا فقط أردت الصحبة. علبة سجائر لا تقدر بثمن، في الشارع المضاء باللون الأحمر، سيكون الليل طويلاً بما يكفي لتشكيل ذكرى، تعوض عن أيام الأسبوع التي لم أستخلص منها أي صور مؤلمة أو مفرحة، كانت ثابتة كشاشة تلفاز قطع عنها البث، كم أكره الصور التي لا تعني شيئاً، التي لا يمكن

تصنيفها، أو الشعور بشيء من الحنين حيالها، حتى أني أفكر أحياناً بوخز إصبعي بدبوس، وانا أحدق في شيء ما، لأصنع أي صورة ترسخ في ذاكرتي المريضة، لألبسها صيغة معينة، أو أن أضحك في الشارع، بعد منتصف الليل، والكل نيام، حتى أوقظ الجميع وأسمع سيلاً من الشتائم. أليس ذلك جديراً بتشكيل ذكرى، ذكرى أقدمها لنفسي ليس كهبة من أحد. بقيت أجوب الشارع طيلة ساعات الليل بفرح أليم، واستقلالية ساحرة، وحين بدأ ضوء النهار يتخبط ليخرج من شرنقته، لفحتني نسائم الجليد المنبعثة من روح الصباح الطالعة، واكتشفت حينها شيئاً ما يتوجب فعله، قرار أصدر رغما عني، أصدرته خيوط الشمس الأولى.

الساعة السابعة صباحاً اتخذت قراري بالإنتحار، في هذه الساعة تصبح القرارات أكثر عفوية لمن هم مثلي، عند هذه الساعة تحديداً أشعر بأقصى درجات كراهية نفسي التي ستتعرض لضوء النهار، وسترى جموع التائهين المتراصين في الرصيف أسفل البناء وهم ينتظرون الحافلة. ولأنني حتى عندما أردت الانتحار بإرادتي الحرة ورغبتي الحارة - كنت جباناً و مازال لدي خيط يربطني بالحياة، لم أجرؤ ان أرى حبلاً معلقاً يجعل من أملي بالنجاة صفراً،

ولم أجرؤ على القفز من أعلى البنـاء ايضـاً، أو أن أسـتخدم أدوات حادة على سبيل المثال، تلك همجية لا أقبلها أبداً، لا أحب أن أشـعر بنفســي أكــرر أســاليب المنتحــرين التقليــديين، تخيلــوا أن أمــوت بجرعة دوائية من عيار ال 1000، كم سيكون ذلك رتيبـاً، وعـديم الخصوصية، سأتألم لذلك أكثر من ألم المـوت نفسـه. أردت طريقـة تجعل من الموت شيئاً شـبه مؤكـد ولكن أن يحمـل في طياتـه أيضـاً فرصة ضئيلة للنجاة يصعب حدوثها ـ لكنها ممكنة الحدوث. طريقة تحتاج لجهد وعنـاء، تجعـل من موضـوع الإنتحـار شـيئاً ذا معنـى، ولهذا قررت أن أموت بعقوبـة تحقـير النفس. ولـذلك فقـد كـان علي الجلوس وحيداً وتـذكر الكثـير من الأشـياء الـتي سـتجعل من ألم مـا يتنامى بشكل تدريجي إلى أن أسقط عن كرسي. لم يكن ذلك بـالأمر الهين أبداً، فهو يتطلب الكثير من الـذكريات المتتابعـة والكثـير من مشــاعر النــدم واســترجاع آلاف الحماقــات الــتي تم ارتكابهــا هنــا وهناك، وهي تحتاج الكثير من التركيز والكثـير من الـوقت، وأي مؤثر خــارجي قـد يكـون عائقـاً لإتمـام العمليـة بنجـاح، ولـذلك قد تحتاج إلى العديد من المحاولات، لكنها والحـق يقـال طريقـة فريـدة ونادرة وممتعة بآن واحد. الجلسة الأولى كانت مضحكة فعلاً حــتى خيل إلي أني أحضر نفســي للـذهاب لمشـاهدة فيلم سـينمائي، حيث

أن الموسيقى هادئة وبعيدة من ورائي والضوء خافت قادم من النافذة و إلى جواري الورق والاقلام وعلبة التبغ كانت جميعها أخر مايدل على أنها أدوات شخص يريد أن يتخلص من الحياة. في بادئ الأمر ضحكت، ساعة ونصف كفيلة بجعلي أشعر بالوحدة وأن أغرق في لحظات معينة، لكنها لم تكن اللحظات التي أرغب بتذكرها، أنا أعلم أن في ذاكرتي أشياء أكثر دسماً وأكثر شوقاً وحنيناً مدموماً ومشاعر مختلطة قادرة على الفتك بي، لكن أحد ما لا يستطيع إرغام نفسه على تذكر أشياء يرغب بأن يتذكرها، لأنه هو نفسه لا يعلم ماذا يريد أن يتذكر وأي من سنوات عمره هي الأكثر ملائمة لاستجرار الذكرى .

بدأت رئتاي تمسكان برقبتي من الداخل، و ذلك ماكنت اريده، كنت على يقين أني أسير في الطريق السليم، ساعة اخرى قد تكفي للإطاحة بي بشكل نهائي ..

قرع الجرس !! لم أكن قد أعطيت أية مواعيد، ولم أتوقع قدوم أحد في تلك الفترة بشكل محدد، حيث أني لن أفتح الباب لأي أحد، استرقت السمع قليلاً، كانوا زوار الشقة المجاورة لي وقد ضغطوا جرس المنزل عن طريق الخطأ .. لم استطع المتابعة، مع صوت

الأشخاص والأضواء القادمة من الخارج، وسأحتاج إلى ثلاث ساعات على الأقل للوصول إلى لحظة الإختناق الداخلية، على العكس تماماً حين حل المساء، خرجت بجولة إلى الدورة، وكانت المقاهي مكتظة رغم النسيم البارد الرطب الذي كان يأتي من جهة الشاطئ. كانت روائح النرجيلة والنعناع وصوت خرخرة المياه والموسيقى المنبعثة من الداخل، توحي بالحياة حتى وإن كانت بلا معنى، لكنها توحي بوجود أشخاص يريدون الاستمرار بأي طريقة أو ثمن، وهو ما كنت قد تخليت عنه تماماً، فأنا لست بحاجة للاستمرار والإعادة، وتلقف المعاناة اليومية بمسميات مختلفة. كيف لي أن أتحمل رؤية شخص يبكي أو شخص يكابد ثلثي النهار لتأمين لقمة عيشه التي ستبقيه على قيد الحياة في الثلث المتبقي.

ولذلك كنت أعي جيداً أني لن أستطيع ان أكون مثل هؤلاء، قد أكون أقل حماسة أثناء الليل بوصفه الوضع الأكثر مثالية وقبولاً، لكني كنت أعي أكثر أن مجيء الصباح بصقيعه القبيح وضوءه الذي يشق السواد بقسوة سيكون ثقلاً يهلكني ماحييت. سأسمع العصافير التي تبكي كرها لما حولها وكرها أشد للصباح، ذلك البكاء الذي يسمونه زقزقة وبكل وقاحة، ويصبغونه بصباغ

التفاؤل والولادة المتجددة للأيام التي تحمل إلى العالم كل ماهو جديد، ولذلك لا بد من إنهاء ذلك الصراع غداً، حيث لا مزيد من الصباحات وأضواء مثيرة للرعب.

مع طلوع الصباح قررت المحاولة مجدداً، بالأحرى كان الضوء يأخذني تدريجيا للشعور نفسه، أغمضت عيني أدرتهما 180 درجة إلى الوراء كآلة تعمل على مسننات، حتى رأيت الحجرة السوداء المظلمة المفرغة، لم يكن هناك شيء يستحق الوقوف عنده، صمت الحجرة التي في رأسي متصل بشكل مباشر بالصمت الخارجي، فجأة ومن النفق المظلم البعيد جاء رجل قوي البنيان، يبدو عليه غبار الزمن، بدأ يقترب وعيناي المقلوبتان تراه جيداً، لم يفصح عن إسمه لكني عرفته من الصخرة التي يحملها على كتفه. اصبح قريباً كفاية ثم وضعها على الارض ونظر بتمهل ثم قال : أنا ياصديقي وفي كل الأحوال لم يوجد ولن يوجد من هو أكثر مني شقاءً؛ منذ أن ولدت وقد وضعوا نصب أعينهم تعذيبي، حاولوا مراراً الا يفسحو لي المجال ان أسأل حتى لم انا هناك، لم استطع ان أحصل على دقيقة واحدة أفكر بها من دون حمولة، وحين اصبحت قادراً على رفع الصخرة أنزلو بي العقوبة الأبدية، لكني

لم أخبر احداً من قبل، أني كنت أفكر وانا أرفع الصخرة، كنت أفكر في رأسي أن مايجري ليس حقيقياً وأن عالمي الذي أعيشه مغاير تماماً للعالم الذي أنا أرفع به قطعة من جبل أصعد بها إليه، لم أكن أعلم حتى أني صعدت ونزلت يوميا ألف مرة، أو أن رقبتي كانت تهرس بالصخر. لم أشعر حتى بالدماء التي كانت تغرق قدمي، إنما كنت في أفضل حال عشتها داخل حجرتي التي قلبت فيها عيني مثلك تماماً. كنت على ذرى الجبال، أرى ضآلة ماحولي، أرى نفسي عذباً ونقياً كالهواء، لم أعرف ظلاماً أو ضوءً، كان بالنسبة لي كل شيء خارج الحجرة شيئا ثانوياً عديم الأهمية، الظلام و الضوء و الصخرة والجلاد. كان لي شرابي وأحلامي اللذان كل ما عداهما وهم. كنت أعزف وأغني وأرقص ثم أصعد كمن نفخته الريح، إلى الجبال مجدداً، أكتب ملحمتي وأغنيتي الأبدية، لأني أيقنت بعمق أني سأكون أبدياً.

أقول لك ما قلته لأني أعلم أنك تعدني جباناً، وأني لطالما امتلكت الحل بأن أحرر نفسي، لكن ذلك لم يكن مشرفاً على الإطلاق، إنما هو جبان من لم يتجرأ على تجربة ما حملته أنا، جبانا لأنه يظن أن إرادته الحرة تملي عليه الهرب ولا تملي عليه الإنكار، انما انا

واظبت في إنكاري، وأنا من انزلت عقوبتي بهم وليس هم، عقوبتي العظمى التي تلظي نفوسهم، وتجرد قدرتهم في تحطيمي.

باختصار يمكنك معرفة من هو الجبان يا صديقي، الجبان الذي يترك حجرته هذه بكل مقوماتها، من أجل ضوء وعصافير وبشر ومعاناة أو ضجر، أحمق من يفوت فرصة مقابلتي من أجل الفناء الأبدي.

....

ملاحـــــظات مجهـــــــول رقم ٢ :

كـانت تلـك المـرة الأولى الـتي أتوجـه فيهـا إلى دولـة غـير ناطقـة بالعربيــة، لم أكن أظن يومــاً أني ســأغادر حقــل أبي، ومزرعــة الزيتون والبئر الـذي أنفـق سـاعاتي وأنـا أراقب منسـوبه، ومـنزلي الريفي المتواضع، وعصافيري في الأقفـاص المرفوعـة والـذين لم يستوعبوا مجريات الأحداث بأنهم أصبحوا بلا قفص كمـا أصـبحت أنا بلا سقف؛ فأنا نفســي لم أسـتوعب كيـف يمكن ان أصـبح مـا انـا عليه اليوم خلال سـنة واحـدة فقـط. لم أسـتوعب أبـداً كيـف أنـا حي حتى الآن، اشاهد صورة منزلي في اليوم عشر مرات أو عشرين.

والآن أهئ نفسي للاشيء على اعتبارأان الأسوأ دائما هو قـد حـدث بالفعل، أما الموت فهـو درجـة لا تنتمي إلى سـلم درجـات الافضـل والأسوأ، فهو فلسفة مغايرة تماماً، ولا يمكن تصنيفه حتى.

أجوب شوارع المدينة الشاطئية باحثاً عن مأوى ومنتظراً المكالمة الهاتفية من أبا جواد، وهو ذاته باسم مختلف يومياً وذلك لضرورات المهنة. في الأسبوع الفائت أكد لي أن الطريق على ما يرام وأن الباخرة الفاخرة ستبخر في غضون أسبوع، وأخبرني كم هو من الصعب في هذه الأيام التعامل مع رجال صادقين لا يفرطون بأرواح البشر بسهولة، واتفقنا على المبلغ المادي والتوقيت الذي سأراه فيه.

رائحة شواء من الأسواق الشعبية، ورجال يشربون الشاي في المقاهي. لا أعلم أحداً في البلد الجديد، ولا حتى شخص واحد، يستطيع مشاركتي فكرة، أو يهدأ من روعي، أو يشرح لي لماذا لا يفترض أني اشرب الشاي في مقهى ما باعتباره وضع طبيعي. لماذا علي ان أضع كل ما أملكه بالإضافة إلى كل ما اقترضته في جيب مخفي أتحسسه ثلاث مرات في الدقيقة الواحدة.

ولرغبتي بتحقيق رغبة على الأقل، رغبة ولو تافهة تجعلني اشعر بانتمائي لهذا العالم، قررت الجلوس في المقهى. وشرب شاي دافئ يطرد البرد الذي اختزنته منذ شهر، جاء النادل بثيابه البسيطة، ودمدم بعض العبارات بالتركية الخارجة من فمه المسقوف بشاربان سوداوان غليظان، لكني قلت له كلمة شاي فقط، سألني

سؤالاً أخر لم أفهمه لكني كررت كلمة شاي، ثم انطلق.

نظرت إلى الجالسين باستغراب، أصوات جلبة ونقاشات وقرقعة تأتي من بعيد، ورددت : الأكيد أن أحد ما هنا لا يعلم شيئاً عن جيبي السري المحشو بالعملة الصعبة، الأكيد أن كل شيء لا بد أنه سيسير على ما يرام على الأقل هذه المرة، ايبه كم أنا سخيف، أقاوم الدنيا من اجل جيب، أنا الذي فقدت كل ما يستحق ان أصمد من أجله، إلا أن ذلك هو ما يجعلني قادراُ على الاستمرار، قادراً على أن أطلب شاياً يدفئ كياني.

خرجت في الساعة الحادية عشر مساءً باتجاه البحر، لم يأت ذلك الاتصال بعد، لا أعلم إن كان علي الذهاب إلى أحد النزل القريبة. ذهبت بالفعل؛ الأول ممتلئ و الآخر والثالث والرابع والخامس، كلها ممتلئة بأصحاب الجيوب السرية. خرجت باتجاه الشاطئ القريب أشعر ببرودة تأكل عظامي، اتصلت بالرجل وأخبرني أنه سيأتي عند طلوع الصباح لاصطحابي إلى مأوى مؤقت، ريثما يحين موعد الانطلاق في الايام القريبة. وقفت أتأمل الشاطئ ووضعت حقيبتي بين قدمي، ونظرت إلى الموج العالي، أي حماقة هي ما افعل. هل أقذف بنفسي إلى الموت طوعاً، طوعاً!!! لا لا !! أنا لم اختر أن أقف هنا الآن بانتظار أحد الدجالين الذين لا يتوانون

أن يقذفوا بي إلى أي مكان. طالما أني لا أملك سوى المجازفة وهو الخيار الأوحد ، فأنا غير قادر على الاستمرار أو التلاعب بالحقائق، أنا لا املك مايكفي من الأوراق الثبوتية للاستمرار هنا، انسان بلا اوراق ثبوتية هو شخص بحكم الميت. لطمت موجة عالية حافة كورنيش الشاطئ لطمة مرعبة جبارة كادت تخترق الجدار البيتوني، ضحكت وشعرت بالوحشة.

أعرف حق المعرفة أن نسمة صيفية قادرة على إبكائي لكني لم أكن يوماً بالضعف الذي يجعلني أتهيب ركوب بحر.

اتصل عند السادسة صباحا أبو .. نسيت اسمه. فانا بحاجة لمعرفة تحديثات الاسم دائماً، واتفقنا أن نلتقي عند بائع الصحف المطل على الساحة العامة والتي افترش على عشبها العديد من لا مأوى لهم .

أقبل الرجل بابتسامة نكراء وخبيثة لكنها حقيقية.

- مرحباً سيد عصام، لابد ان رحلتك كانت متعبة والليلة الاخيرة كانت باردة فعلاً.

قبل ان نذهب إلى أي مكان، إن من عادتي أن أوضح كل شيء لزبائني قبل التوجه إلى محل إقامتهم المؤقت. يجب أن يكون كل شيء واضحاً. الصحيح أن لدينا مواعيد دقيقة لكن الظروف تجبرنا

أحياناً لتغييرها في أي لحظة.

سعري غير قابل للتفاوض، وهو محسوم.

فـانت كمـا وسـبق لي أن أخبرتـك، أنـك سـتبحر في بـاخرة قويـة وبطريقـة آمنـة ومضـمونة. نحن لا نرسـل زبائننـا في القـوارب المطاطية في مثل هـذا الـوقت من السـنة، إلا إذا كنت تريـد انتظـار الصيف وهو ما لا أظنه.

أما طرق إيداع النقود فهي الطريقة الشائعة والمتعـارف عليهـا هنـا منذ مدة، ستضع النقـود في مكتب التـأمين. لا يوجـد طـرق مبتكـرة حديثة أفضل من ذلك، ربما يومـاً مـا سيخصصـون بنكـاً وموظفينـاً ونظاماً الكترونياً لمثل تلك التعاملات. هههههه أمزح فقط.

لم يدع لي السيد ابو جواد اي فرصة لأن أسال سؤالا لم يجب عليـه مسبقاً. كان يتحدث عن الإخلاص والعناية بالزبائن وحفـظ الأرواح بقناعة راسخة.

في الطريـق إلى السـوق الشـعبي، كـان أربـاب المهن وأصـحاب المصـالح يمارسون أعمـالهم في متـاجرهم، وأشخاصـاً يسـيرون في الشوارع، و حياة طبيعية بكل ماتحمل الكلمة من معنى. مر بجانبنـا مجموعة من الأشخاص بدوا أنهم ذاهبين للعب كرة القدم. تخيلوا **!!** هناك أشـخاص بـالغين في هـذا العـالم يريـدون اللعب، رغم بـرودة

الطقس، وسيعودوا إلى منازلهم وسيستحمون بمياه دافئة، تخيلوا أن ذلك كان موجوداً وقد رأيته بأم عيني.

دخل الرجل إلى إحدى البقاليات التي جلس فيها رجل خفيف الشعر على كرسي منخفض يضع قبالته مدفأة كهربائية حرارية، و إلى جواره امرأة سمينة الجذع تلوك في كلا جانبي فمها لقمة هائلة. بعض أصناف السلع القليلة رتبت على الرفوف، وبجوارهم براد صغير للعصائر.

- هل تريد أن تشتري شيئا سيد أبو جواد ؟

- ههه لا !! نحن في مكتب الشرفاء للتأمين.

-هذا هو المكتب ؟!!

- نعم، بإمكانك النظر إلى اللافتة في الخارج.

(سوبر ماركت الشرفاء).

لم يسمع حديثنا أي من الرجل أو المرأة، فقد انشغلا بأربعة أشخاص دخلوا لرهن النقود، يقودهم شخص آخر.

سجل صاحب المكتب أسمائهم وقام بعد النقود، ووضعها في الدرج الخشبي. جرى كل شيء بوضوح وانسياب، لم يكترثوا بنا أبداً. جاء دورنا بعدها، أخرج الرجل الدفتر الممتلئ نفسه، وسألني بثقة

وحزم كما يسأل أحد المحققين في واقعة ما :

- الإسم الكريم ؟

- حرر ورقة وكتب إسمي بجانب رقم ما، وكتب الإسم والرقم ذاته على دفتره، وأخذ النقود.

حدث ذلك في دقيقة، نعم سلمت مبلغي بدقيقة سحرية، مرت مثل وهم. خرجنا من البقالية، عفواً .. مكتب (الشرفاء) للتأمين، وضعت يدي على جيبي كما سرت العادة، لم اجد شيئاً، لم أكن راغبا بتصديق أني مغفل، جردت من كل شيء بلحظة واحدة، لقاء ورقة ممزقة الاطراف تحمل إسمي بخط رديء ورقماً خماسياً. في الحقيقة يمكن للمرء أن يكون مغفلاً في كل يوم تقريباً، لكنه لن يستطيع أن يدفع ذات المبلغ سوى مرة واحدة فقط.

خرجنا باتجاه الشارع العام من جديد، وقبل نهاية السوق الشعبي قال الرجل :

- آه إن الساعة الآن هي الواحدة ظهراً، حان وقت الغداء، لابد أنك جائع جداً، وأجزم أنك لم تأكل كما يجب طيلة اليومين الماضيين. سأدعوك إلى الغداء ولكن على حسابي!! مع العلم أن كلمة على حسابي لا تحمل في طياتها أي معنى خبيث ومثير للريبة. صدق يا صديقي أن شخصاً واحداً هو ومبالغه لن يزيد من أموالنا أو

ينقص، نحن نطمح إلى الاستمرارية دوماً وعليك أن تسعى جاهداً لطرد القلق.

اللعين يقرأ مافي النفوس، ذكي فقط فيما يخص عمله، يمتلك من التجربة ومن القوالب والعبارات ما يمكنه ان يجرك إلى التهلكة بضمير مرتاح، أما أنا فليس لي إلا ان أترقب الخواتيم كما يجب أن تنتهي. لم يعد لي إرادة حقيقية في توجيه مسارات الأمور.

جلسنا في مطعم الزاوية المطل على الشارع والسوق، طلبنا سجقاً ولبن، ورحت آكل بنهم، وأنا أوجه نظراتي إليه كفريسة محاصرة، أما هو لم يعبأ سوى بطعامه ومراسلاته التي لا تهدأ.

في الساعة الثالثة توجهنا إلى المنزل المنشود، في أطراف المدينة التي لا يميز فيها السكان بعضهم بشكل كبير، في البداية ظننت المنزل مستودعاً، لكن حينما تابعنا الدخول، أخذ يأخذ شكل البيت قليلاً.

دخل من الباب 4 رجال آخرون، ثم ثلاثة، أصبحنا خمس عشرة تقريباً.

وقف أبو جواد في المنتصف واستعد لشرح شيء ما بلهجة خطابية واضحة :

رفاق، سأشرح مباشرة من دون اطالة، سيحضر عشرة آخرون

وسيصبح العدد الكلي خمسة وعشرون، ستوزع عليكم بطانيات، وستنامون هنا ليومين، لقد أخبروني منذ قليل أن الانطلاق بعد غد في الثالثة بعد منتصف الليل.

يسمح لكل شخص باصحاب بطانيته وسترة نجاة وحقيبة واحدة فقط، لأنكم ستحتاجون لاطعمة تكفي لثلاثة أيام ويفضل أن تكون من المعلبات.

أي شخص يتأخر عن الموعد لن يستطيع استرداد المبلغ.

ستكون الباخرة "أمل " في انتظاركم على بعد 5 كيلومترات، سنذهب إليها عبر قوارب مطاطية. العدد الكلي للركاب هو ثلاثمئة شخص، سيرافقكم القبطان إلى الجزيرة الايطالية.

تعالت صيحات الاستفسارات والمناوشات الغير مفهومة من زمرة ماذا لو ؟ ولماذا لا ؟

لكني لم أنظر إلا إلى الرجل، كان كمن يحاول الضغط بيديه على فخذيه، محاولاً استيعاب زبائنه المدللين، وأجاب على جميع الأسئلة التي يعلمها مسبقاً ويحفظ إجاباتها عن ظهر قلب. أما الأسئلة المباغتية الغير متوقعة فقد كانت غبية لدرجة أن أي إجابة ستكون مقنعة حينما تخرج بنبرة هادئة ومتقنة يتمتع بها أبا جواد.

وزعت البطانيات. جلست على سرير حديدي وضع عليه فراش

غـير قـاسٍ. لم أدخـل زنزانـة سـابقاً، ولا أعلم شـيئاً عن الزنـازين ونزلائها، زنزانة بباب مفتوح وسـجناء ذنـوبهم عظيمـة، ذنبهم أنـهم أرسلوا إلى هذا العالم في وقت غير مناسب، وسيرتحلون في أجواء غير مناسبة أيضاً.

في السرير المقابل جلس أحـدهم وأسـند رأسـه إلى الحـائـط، وشـرع بقضم أظافره ومشاهدة شيء مـا على هاتفـه، ثم بـدأ يضـحك . هـل يظن أنه سيغادر بالطائرة أم تراه باق هنا ولن يذهب معنا، هـل هي جرأة الشباب، تعود، تدريب، أم لامبالاة.

كم أتوق لسؤاله عن ذلك ؟ هذا إن فهم السؤال أصلاً.

إلى جانبي جلس رجل أربعيني يخاطب زوجته التي كانت في مكان آخر:

عزيزتي، سننطلق بعد غد، قالوا إنها باخرة كبـيرة .. مممم آه .. ااا نعم ... سنحضر طعاماً يكفينا لثلاثة أيام و...

كرر الرجل ماقاله أبو جواد بحـذافيره، لم ينـاقشـوا حـتى احتمـالات أخرى.

بـاخرة أجـل، ربمـا التـايتنيـك. ثم لمـاذا عليهم مناقشـة احتماليـات ووضع خطط وخطط رديفة وبديلة. في البحر هذا لن يجدي نفعـاً، في البحـر سـيكونون على صـواب وسـأكون المغفـل الوحيـد. إذا

حصل يوماً ما و اتبعت احساساً داخلياً يدفعك بقوة، متجاهلاً كل مايفرضه المنطق من خطأ وصواب، ثم قررت التراجع في منتصف الطريق بحجة أنك اكتشفت منطقاً يحمل خصالاً من الحكمة فتلك الخطيئة الكبرى. إما تابع هذا الطريق أياً كانت نهايته أو فلا تتبع إحساسك المختل اللعين منذ البداية.

وائل، هكذا عرف الشاب الثلاثيني عن نفسه بحماس، لم يسهب في الحديث عن نفسه كثيراً لكنه راح مباشرة يطرح الأسئلة ويجيب عليها تلقائياً، ثم خاطب الحضور أن يكونوا معه يداً واحداً وأنه على أتم الاستعداد لمساعدة الناس، فهو سباح ماهر بالإضافة إلى أنه يعلم الكثير عن خبايا الأجواء المرافقة للرحلة، ويعلم أنهم تحت سلطة مجموعات مافيوية بلا رحمة. وأنهم اذا كانوا يداً واحدا متكاتفين متعاضدين بذلك سيجبرون هؤلاء المجموعات للانصياع لرغائبهم وعدم الاستهتار بأرواحهم. هتف الأربعيني فجأة بالقبول، وأومأ ثلاثة آخرين برؤوسهم موافقين، أخذ وائل ورقة وراح يرسم الخطط بنزعة قيادية.

ها قد برز القائد الضروري لكل مجموعة من الأشخاص يفوق عددهم الشخصين. تلك النزعة الفطرية والحالة الطبيعية التي تفرض نفسها بطرق عفوية غير مبتذلة، لكل مجموعة من

الأشخاص هناك وائل واحد، يحاول الجميع نسج طمأنينتهم بخيوط شجاعته، وفي الثانية ذاتها التي تبصر الروح القيادية عيون المنصاعين، تأخذ النماذج بالانقسام ويأخذ كل منهم دوره، المتشكك والداعم الأعمى والحاقد الفطري الذي وجد في صدره كراهية حاقدة تقوض روح المجموعة.

راقبت ذلك بهدوء كمتفرج وحيد يشاهد المنصة الممتلئة،
لم أحاول الانخراط في النقاشات نهائياً، النقاشات التي لا تعطي قيمة نهائية، ولاتجدي نفعاً عندما سيصبح الجميع على المحك.

خرجت من البيت الذي انتقل نزلائه من مرحلة الفوضى إلى الخطط اللامجدية التي رسمها القائد الفطري الجديد.
لم يعلم أحد أني غادرت، لم يعلم احد أني كنت موجوداً، ماهو اسمي وكيف هو شكلي. لن يهتموا لأي من الذاهبين او القادمين، النيام أو الصاحين، لأن البحر حضوره اقوى وهو الحاضر الأوحد في عقولنا جميعاً.
وصلت إلى الشاطئ والريح تعانق مرفقيّ، وبدأت رائحة البحر

تهيج ذاكــرتي، والظلمــة جعلت من روحي معتمــة كمــا ابصــرت عيناي لحظتها، عيناي اللتان ترسلان لون البحر الـداكن إلى داخلي والتي تفسره نفسي بنظرة عيناي من جديد. ويظل اللــون في داخلي محدثاً قشعريرة ووحدة.

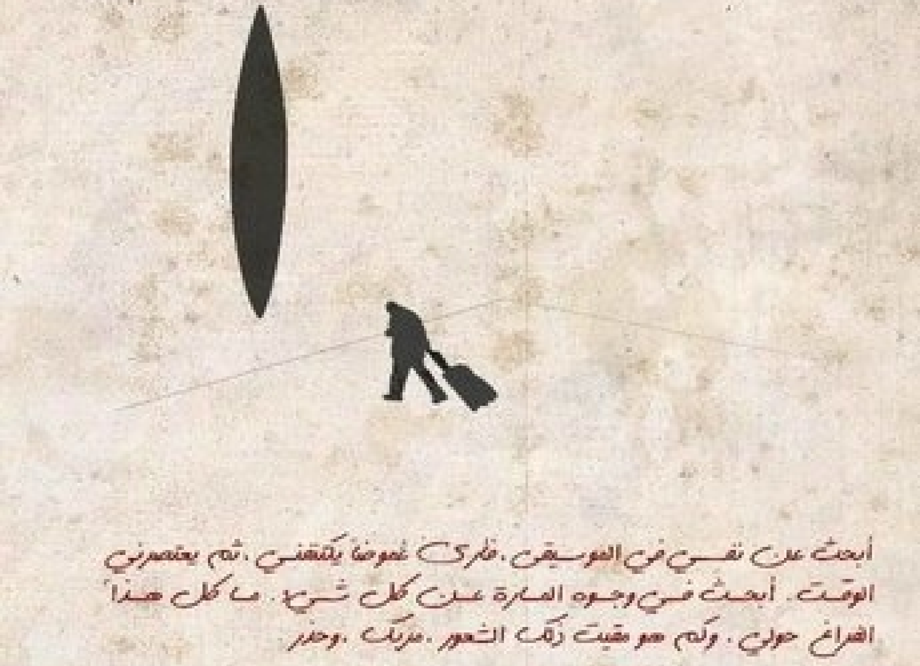
بحر، نسيم بارد، عتمـة، رائحـة، أنـا. ألسـت أنـا من هـذه العناصـر وهي مجبولة مني؟ ألم ننصهر ببعضنا ولو لحظة؟ لما على البحـر أن يـرعب كيـاني إذا كنـا واحـداً ؟ والـوعي هـو فقـط من يحـاول إبعادي عنه بخطى لئيمة. ألم أكن أنـا فلاحـاً يجلس بعـد تعبـه بظـل زيتونته، يتأمل نموها كأنهـا هـو؟ ألم أحمـل تربتهـا الحمـراء بيـدي لأنثرها بتباطئ كساعة رمليـة؟ وكـانت سـكينتي تـنزل مـع الـتراب كأنهما كيان واحد، ومخيلتي التي لم تفكر حينها بحدود وسفر، حين مارســت سـفري في بحــر تربــتي الاحمــر المغــبر، وغــرقت في جذوراشجاري الضاربة، والشمس تـوخز عيـني المغمضــة، منسـلة بين الاوراق المتمايلة، تغازل المسـتلقي كعنصـر طـبيعي لا يتجـزأ من الأرض التي ينتمي اليها.

وكذلك بحري هو الآن.

لم الانتظار إلى الغد إن كان بإمكاني أن أصبح سـمكة الآن وبشـكل طوعي وبمحض إرادتي ..الآن سأصير السمكة.

لن أحدثكم عن أيـة رحلات وبـواخر وقـوارب مطاطيـة وأشـخاص يصـرخون أو يتضـرعون، أو عن أيـة نتـائج وإحصـاءات، فهنـاك الكثـير منهـا، الكثـير الكثـير من القصـص المشـوقة والمغـامرات الخطـيرة الـتي أقفلت بنهايـات سـعيدة او مأسـاوية أو تلـك المفعمـة بالغموض. قصص كثيرة لم تعد تأخذ هيبة تذكر، ولـذلك أن تحـول نفسك إلى سمكة يعني أنك تحررت مما كان يفزعك.

».



أبحث عن نفسي في الموسيقى، فأرى غموضاً يكتنفني، ثم يعتصرني الوقت. أبحث في وجوه المارة عن كل شيء. ما كل هذا الفراغ حولي، وكم هو مقيت ذلك الشعور، مربك، وحذر

هل أنا قوي بما فيه الكفاية، لأتحمل رؤية ألف وجه؟!

تصميم الغلاف
هشام السليم